الظاهرة القرآنية

تأليف

المفكر الكبير/ مالك بن نبي

ترجمة

أ.د عبد الصبور شاهين

تقديم

أ.د / إبراهيم صلاح الهدهد

الجزء الأول



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



تقديم

(مالك بن نبي) ابن خلدون العصر

المولـد والنشـأة، ومكابدة العيش: ولـد مالك في الخامس من شـهر ذي القعدة لعـام ١٣٢٣هـ الموافـق ١٩٠٥م، في مدينة قسـنطينة شرق الجزائر، في أسرة محافظة، لذا حفظ القرآن صغيرًا وانتقلت أسـرته إلى (تبسة) فقد كان والده يعمل في مجال القضاء الإسـلاميّ، وأنهى تعليمه الابتدائيّ والإعدادي في تبسـة بالمدرسة الفرنسـيّة، ثم ذهب إلى المدرسـة الثانوية بقسنطينة، وتتلمذ على يد أساتذة وطنيين في اللغة العربية، وعلى آخرين فرنسيين، وكانت قسـنطينة إذ ذاك مائجة بالعمل الوطني، وكان للشـيخ ابن باديس - رحمه الله - أثر ظاهر فاتسـع اهتمام مالك به، لكنه بعد إنهاء تعليمه الثانـوي ١٩٢٥م عـاد إلى (تبسـة) باحثًا عن عمل، ثـم انتقل إلى (آفلـو) وعمل موظفًا بالمحكمة، ثم سـافر إلى فرنسـا، فعمل في ليـون في مصنع للأسـمنت، ثم رحـل إلى باريس وعمـل في مصنع للمشـروبات على رصيف الزجاجات الفارغة، ولم يطق العمل فعاد إلـى الجزائـر، وعمل في محكمـة (آفلو) لمـدة عام، ثـم عاد إلى (تبسة) عام ١٩٢٨م وعمل بالتجارة، فبار عمله بالخسارة، ثم رحل إلى باريس لإكمال دراسـته بتوجيـه من أهله، وإنفاق منهم، فالتحق بمدرسة (اللاسلكي) ودرس الكهرباء والميكانيكا، وهذه الدراسة أعطته بُعدًا آخر يقول عنه: فتح لي عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم والكيف، ويتسم فيه الفرد- أول ما يتسم

- بمَيزات الضبط والملاحظة، وتخرج فيها (مساعد مهندس) ثم تزوج بفرنسية مسلمة، وأقام في فرنسا، وكان يتردد على الجزائر.

صورة حياته الفكرية: بعد هذه الرحلة التي تعد مرآة لكفاح الحياة، ارتفع شعوره الوطني، وانغمس في الحياة الفكرية والسياسية، وقد اجتمع له الأمران التجذّر الوطني، والأخذ بأسباب الحضارة والثقافة الحديثة، لذا كانت مؤلفاته تلبية لحاجة المجتمع، ووصفًا دقيقًا لدائه ودوائه، في وقت كانت تعاني بلاده من نار الاحتلال، هي وأخواتها من البلدان العربية والإسلامية، فعكست كتبه همومه الإسلامية والعربية، وناقش تخلف المجتمعات الإسلامية وفكرة القابلية للاستعمار، وكانت اهتمامات مالك دائرة حول مشكلات الحضارة التي حثّ على العناية بها، وكان يعتمد بشكل رئيسيّ على الأسلوب التحليليّ؛ حيث يعرض في كتاباته أبعاد المشكلة، والعناصر الرئيسيّة التي يعتمد عليها في عمليّة الإصلاح، وهو من أبرز المفكرين المعاصرين الذين تولوا مشكلات الحضارة بالدرس والتحليل، كما أنه يعد أول من أودع منهجًا مُحدّدا في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ، كما أنه طور معرفته باللغة العربية وراجع كل كتبه المترجمة للغة العربية وشرع بالكتابة بالعربية وإلقاء المحاضرات بالعربية، وهو مفكر متفرد في عصرنا فهو يدرس ويتأمل ويقارن ويحلل المشكلة إلى أجزائها، ثم ينسق ويركب ويجتهد في إيجاد الحلول وقد تجلى عقله في المؤلفات الآتية:

- كتاب الظاهرة القرآنية: ألفه عام ١٩٤٦م.
- شروط النهضة: ألفه عام ١٩٤٨م.
- وجهة العالم الإسلامي للاستعمار في القرن العشرين ١٩٥٤م.

وبعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر عام ١٩٥٤م انتقل إلى القاهرة، وفي القاهرة ألف:

ـ فكرة الإفريقية الآسيوية عام ١٩٥٦م.

ـ النجدة.. الشعب الجزائري يباد ١٩٥٧م.

ـ فكرة كومنولث إسلامي ١٩٥٨م.

ـ مشكلة الثقافة ١٩٥٩م.

ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ١٩٥٩م.

ـ تأملات ١٩٦٠م.

ـ في مهب المعركة ١٩٦٢م.

ـ آفاق جزائرية ١٩٦٤م.

ـ إنتاج المستشرقين ١٩٦٨م.

ـ الإسلام والديمقراطية ١٩٦٨م.

ـ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ١٩٧٠م.

ـ دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين محاضرة ألقيت في ١٩٧٢م.

ـ بين الرشاد والتيه ١٩٧٢م.

ـ المسلم في عالم الاقتصاد ١٩٧٢م.

ـ من أجل التغيير.

ـ ميلاد مجتمع.

وفاته: بعد معاناة من المرض توفي رحمه الله في ٣١ / ١٠ / ١٩٧٣م، ودفن بالجزائر بعد ثمانية وستين عامًا قضاها في الفكر السديد استيعابًا، وإنتاجًا.

هذا الكتاب:

الظاهرة القرآنية : كتب له شيخ العربية الشيخ محمود محمد شاكر مقدمة مسهبة تحدث فيها عن إعجاز القرآن، وقد بين في هذه المقدمة أن الكتاب له نهج مستقل، إذ استمده عبر منهج طويل التأمل في فطرة الإنسان وتدينه، وقد عرج فيه على فتنة الشباب المسلم، الذين وقعوا أسرى حرب في ميدانين ميدان الحرب وميدان الثقافة، وميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لاتعد، وهكذا ظل شيخ العربية يصف لنا حركة عقل ابن نبي في هذا الكتاب وكيف لامس حاجات الشباب، وعرض فكره مستثمرًا أسباب العلم، ومناهج التفكير، في دفع الغوائل والعاديات عن عقول شباب الأمة، ولأهمية هذا التقديم رأينا نشره، ولقد كانت كتابة المقدمة بدعوة من المؤلف لشيخ العربية.

وقد بين المؤلف الغايتين اللتين يحققهما الكتاب، وهما :

- إتاحة الفرصة للشباب المسلم للتأمل الناضج في الدين.
- اقتراح إصلاح مناسب للمنهج القديم في تفسير القرآن.

وقد ضم الكتاب موضوعات بالغة الأهمية حيث بين فيه الظاهرة الدينية والمذهب المادي والغيبي والحركة النبوية وخصائص النبوة وأصول الإسلام، والعصر القرآني، والخصائص الظاهرية للوحي، وغير ذلك من الموضوعات التي تثبت أن القرآن كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم في أسلوب ارتكز على الإقناع، والإمتاع، ونحن إذ نقدم لهذا الكتاب النفيس نستثمر هذه الفرصة لتوجيه الشكر لروح المرحوم الأستاذ الدكتور / عبد الصبور شاهين الذي ترجم هذا النص الثمين إلى اللغه العربية والله نسأل أن ينفع به قراء المجلة الكرام، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه: أ .د / إبراهيم صلاح الهدهد

مقدمة الطبعة الفرنسية

للمرحوم الدكتور / محمد عبد الله دراز

عزيزي السيد بن نبي :

فرغت لتوي من قراءة كتابك القيم (الظاهرة القرآنية) ، ومما أعطى لموضوعك أهمية كبرى أنه قديم وحديث معًا .

ففي ضوء العلم الحديث ، ولجت قضية رئيسة ما فتئت تشغل المفسرين في كل زمن ، ولعلي أنا لامستها في دراسات عديدة سابقة ، سواء ما كان منها بالعربية أو الفرنسية .

إن الغبطة التي شعرت بها وأنا أقرؤه ، لهي من العمق بقدر ما أتاحت لي هذه القراءة أن أدرك من جديد ، ذلك الجهد الجاد المستقل والمتجرد ، يقود الباحثين عن الحقيقة إلى نتائج متماثلة بل موحدة على الرغم من المسافة التي يمكن أن تفصل بينهم في المكان والزمان .

وإذا نحينا جانبًا أسلوبك الفني في الكتابة ، وطريقتك الرائعة في عرض الأشياء ، فإننا نجد طرقنا في الدراسة متشابهة بصورة بارزة .

ليس هذا فحسب ، بل من غير النادر أن يحمل تفحصنا للأمر المثل نفسه وأن يشير إلى المعنى ذاته .

إن المسألة هي في البحث عن المصدر الحقيقي للقرآن ، وأن نعرف ما إذا كان يمكن أن يكون هذا الكتاب قد استخرج من علم أو إدراك من أرسل به ، أو من معرفة بشرية على وجه العموم ، أم أنه على العكس من ذلك ، هنالك أسباب لا يمكن دفعها تحدونا للاعتقاد بمصدره العلوي الإلهي .

تلك هي المسألة التي جئتَ بدورك تلزم نفسك بالعمل على حلها ، بإيجاد الأسس الثابتة والعقلية ، للإيمان بالمصدر الإلهي

لهذا الكتاب، وتسليط الأضواء عليها.

وإذا كان المفسرون التقليديون، توصلًا إلى الهدف نفسه، قد أكدوا بصورة خاصة على الجانب الأدبي من المسألة، فإن هذا الموقف على كل حال يجد تفسيره وما يسوغه في السمة الأعم للقرآن، تلك السمة التي تميز بها الأسلوب القرآني في جمال لا يضاهى وجلال مميز، وبالاعتراف الفوري بالعجز عن الإتيان بمثله، وهو الوجه الأقرب منالًا لسائر البلغاء من البدو. على أنه من الصحيح أيضًا أن هؤلاء المفسرين، وهم ينظرون في محتوى القرآن، قد رأوا في اتساع وعمق المعرفة التي يحملها للإنسانية، دليلًا في ذاته على خصائصه التي تتجاوز طاقة البشر، وأن التعارض بين توجيه بعض الآيات، كآية:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾

(الأحزاب: ٣٧)

مثلاً، والمشاعر الشخصية للرسول ﷺ، لشهادة لا تُرَدُّ على استقلالية القرآن عن النبي.

فهل يمكن أن يقال إن هذه النتائج المستخلصة من قبل أجدادنا، تجعل كل محاولة لتفسير جديد عديمة الجدوى؟

هل يقال: إن واجبنا يتحدد من الآن فصاعدًا، بتدوين هذه النتائج الجاهزة، وبالنظر إليها كأنها الكلمة الأخيرة حول حقيقة الأشياء؟

كلا، ثم كلا.

إذ إنه بقدر ما تتطور معارفنا حول الطبيعة والنفس الإنسانية، وكلما اكتسبنا سببًا جديدًا يحملنا على أن نرى الأشياء من زاوية

مختلفة، فإن ذلك يدعونا إلى أن نضع المشكلات حين ندرسها بما يتفق وهذا الجديد من واقع العلم.

والمسألة القرآنية لا ينبغي لها أن تخرج عن هذه القاعدة.

فإذا كان صحيحًا أن القرآن معجزة مستمرة، وإذا كانت علائم صدقه من ناحية أخرى لا تنحصر في عبارته فحسب، بل في عالمي الطبيعة والنفس أيضًا كما يقول القرآن نفسه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ (فصلت: ٥٣)

إذا كان الأمر كذلك فإن واجبًا يقع على كل مؤمن متصل بمعطيات العلم.

إنه التقريب بين جانبي روحه: بين معتقده وعلمه. حين يواجه النصوص المنزلة، لا أقول بفرضيات العلماء التي لم تتحقق أو التي لا تقبل التحقيق، ولكن بالنتائج الثابتة والمستخرجة من تجاربهم، وأن يأخذ من تلك المواجهة ما ينتج عنها من دروس.

وإذا كان في الواقع هنالك حقيقتان، فإنه لا يحق لواحدة منهما أن تنكر الأخرى، بل على العكس من ذلك، عليها أن تؤكدها وتشد من أزرها.

وإذا اتفق لمؤمن متعلم أن ملك موهبة الكتابة فوق هاتين الصفتين من الإيمان والعلم، فإن واجبًا آخر يقع على عاتقه: إنه إخراج ثمار علمه بلغة عصره، كما يفعل نبي يخاطب قومه بلغتهم.

إنني أستطيع أن أؤكد بأنك قمت بكلا الواجبين.

فقد تأملت بنضج ذلك الاتصال بالعقل والتراث، بالعلم والعقيدة، وأفرغت في عرض جميل واضح ومتماسك شرارة ما تفجر من ذلك اللقاء.

فســداد حكمــك ، وحــرارة عقيدتــك ، وحداثــة مصطلحاتــك ، وجمال أســلوبك ؛ هــذه كلها ميزات بــارزة لا أســتطيع أن أفيك ما تستحق من تهنئة عليها .

ولكني أرى من الواجب أن أوجه كلمة إلى الشباب المثقف كيما يتفــادى التباسًــا يمكن أن يقــع فيه حول الهــدف الحقيقي من هذه الدراسة .

أريد أن أقول لهؤلاء الشــباب : إن الأمر لا يعني هنا نشــرة لجمع المعلومــات وتخزينهــا في الذاكــرة ، ولكن نموذجًــا حيًا من نقاش جدلي ، فائدته الحيوية الكبرى بما يذكي من الطاقة الروحية لســائر القــراء القادرين على التفكيــر بمنهجية ، كما يضع كل منهم بدوره قضية (الحقيقة) ويبحث بوســائله الذاتيــة عما يتعين عليه اتخاذه في سبيلها .

فــإذا اســتطاعت نشــرة من هذا النــوع أن تخــدم بوصفها علاجًا للتشــكك الديني فتلك زيادة في الخير ، إنما يبقى الهدف الأساسي قبل كل شيء محاربة اللامبالاة حول مسألة (الحقيقة العلوية) .

علــى كل حال فإن دراســة كهذه ، لا تفكر في أن تفرض نفســها على أنها نوع مــن العقيدة ، نقبله بعيون مغمضة وبغير نقاش . فهذا على ما يبدو لي أبعد ما يكون عن فكر المؤلف ، فضلًا عن أنه يتنافى مع المبادئ القرآنية التي يدافع عنها .

فالقــرآن لم يعلن فحســب بــأن الإيمــان لا يفرض مــن الخارج ، ولكنــه أدان بقوة كل اتباع أعمى يلقي بزمامه إلى ســلطة لا تســتند إلى العقل . وقد دعا دائمًا باســتمرار إلى التأمل الفردي المنســحب من تأثير الوسط الخارجي والأفكار المسبقة ، ومن كل فكرة مستقاة بعفوية دون تمحيص .

إن (ديكارت) لم يفعل غير ذلك، حينما رفض أسلوب الهيمنة، مطالبًا بحق العقل، مؤكدًا واجب كل امرئ بألا يأخذ بغير الثابت والبديهي الذي لا مراء فيه.

أكثر من هذا؛ ففي هذا الإطار يبدو لنا المذهب الديكارتي من هذه الناحية، أقل تشددًا وتمسكًا من القرآن.

فمن المعروف بأية عناية أوضح الفيلسوف الفرنسي تأملاته، وهو يضع تلك القاعدة المنهجية التي لا تقبل غير الأفكار الواضحة والمحددة. فهو لم يشأ بذلك التكلم عن الأمور التي تنظر إلى الإيمان والمثل، ولكن عن الحقائق المجردة التي لا يمكن معرفتها إلا بالضوء الطبيعي وحده.

فإذا كان (ديكارت) قد اضطر إلى مثل هذا التحفظ؛ لأنه يعد الإيمان المسيحي تكتنفه أمور غامضة بوصفه موضوعًا، فمن ذا الذي لا يرى أن هذا التحفظ لا محل له في العقيدة القرآنية؟.

مهما يكن من أمر فإنني لا أرى جيدًا السبب الذي يستطيع أن يسوغ التقليل من شأن الفكر الديكارتي. فهناك انطباع بأنك تضعف بطريقة منهجية من شأن هذا الفكر، كما لو أن ديكارت ذلك الوجه الكبير في الفلسفة الحديثة، كان كافرًا أو متشككًا أو رجلًا يعتقد بسذاجة، بكمال الفكر الإنساني واستقلاليته المطلقة تجاه كل تحسس خارجي، مستمد من الطبيعة أو مما هو فوق الطبيعة.

ولهذا أتمنى أن تحمل الطبعات القادمة ما يبدد بعناية هذا الالتباس.

وهناك ملاحظة أخرى صغيرة إنها تتعلق بحياة محمد ﷺ.

يبدو لي أنك أخذًا بتأكيدات بعض المستشرقين، قبلت بدون صعوبة افتراضهم حول مدة اعتكاف النبي قبل نزول الوحي.

فنحن نعلم موضوعهم المفضل في هذا الإطار.

إنــه يرتكز على القول إنها فترة احتضان وتخمر للأفكار الدينية التي سبقت وضوح القرآن في الوعي المحمدي.

وبمــا أن فكــرة تهــدف لعلم واســع عظيــم كالقــرآن، لا يمكن التصور بــأن تتحدد معالمها بين ليلة وضحاها، ويقتضي لها الوقت الضروري والطبيعي لتحضيرها، فإن هؤلاء الكتاب قد التزموا جانب الافتراض، وافترضوا لهذا الاعتزال مدة تمتد عبر سنين عديدة.

وهكذا تحتم على محمد أن يختفي منذ زواجه في ســن الخامسة والعشــرين، ليفــرغ إلى تأملاتــه، ولا يعود للظهــور إلا وهو يحمل رسالته ذات صباح.

وعلــى الرغم من أنك جهدت في تفنيــد ورفض فكرة الاعتكاف هذه، فإنك تبدو مع ذلك قد أفســحت المجال لوجود خلفية وســند مادي لها، أعني بذلك انطواء الرسول لمدة خمسة عشر عامًا.

إن فرضية غياب كهذا، ليســت فحســب مجانبة لا سند لها، بل إنها غير صحيحة على الإطلاق من الوجهة التاريخية.

فالمصــادر الوثيقــة جدًا تحدد فــي الواقع تاريخ هــذا الاعتكاف بالضبط بشــهر قبــل نزول القــرآن. كما تحــدد بدقة أكثــر أن هذا الشــهر تخللته عودة إلى منزله مرات عدة كيما يتزود. وقد ســبقت هــذا الشــهر أيضًا رؤى واضحة كان يراها الرســول فــي منامه ثم ما يلبث أن يجدها حقيقة كفلق الصبح.

لقد حدثت هــذه الإرهاصات جميعها في الأربعين من عمره، أي في عام هبوط الوحي.

وإذا ذهبنا بعيدًا، وافترضنا جدلًا أن هذا الشــهر من الاعتكاف، قد داوم عليه الرســول في كل عام، منذ زواجه وحتى نزول الوحي؛

يبقى أن نلاحظ بأن أحد عشر من اثني عشر شهرًا من سني حياته في هذه الفترة قد قضاها في محيط اجتماعي، وأمام أعين مواطنيه.

والقرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(يونس: ١٦)

إنما يستخرج بالضبط، حجة من استمرار إقامة الرسول بين قومه فترة واسعة وكافية، ليدرك الناس جميعًا ميزاته واهتماماته، وعجزه الشخصي عن القيام بوضع آيات القرآن.

فماذا كانت أعماله في تلك المرحلة الانتقالية؟.

هناك حدث محدد وأكيد على الأقل. ففي نحو الثلاثين من عمره شارك في إعادة بناء الكعبة. ومن المعلوم من ناحية أخرى أنه تحمل بكفاءة ونشاط أعباءه العائلية؛ إذ رزق أكثر أولاده قبل قيامه بالرسالة.

وإذا كنا لا نملك تفاصيل أكبر حول أعماله اليومية قبل البعثة، فمرد ذلك بدون شك، إلى أنه فيما عدا السمة البارزة لعظيم أخلاقه، لا نجد في تلك الفترة من الزمن أمرًا منفصلًا عن مألوف وسطه يمكن التحدث عنه.

فسكوت سائر رجال السيرة، عن التفصيلات الإضافية في هذا الخصوص، نقطة نسجلها كما لاحظت بحق، لصالح التراث الإسلامي الذي تحلى دائمًا بأمانة تاريخية متشددة إلى أقصى حد، حين عزف عن كل توسيع أو تقليص، للمعطيات الثابتة التي يجدها في متناوله، سواء كانت هذه المعطيات لصالح قضيته أو في غير صالحها.

بعد هذا كله، أعود لأهنئك مرة أخرى على واسع الجهد، الذي به نجحت في إلقاء ضوء جميل حول المسألة الدينية في عمومها، وحول الفكر القرآني خاصة، كيما تسهم في دعم الأساس العقلاني للإيمان.

فعساك تجد أعظم ثوابك في ذلك النجاح المعنوي الذي يستحقه كتابك. وعسى نداؤك المنطقي والشاعري الذي أطلقته ليلامس أصحاب العقول النيرة، يتسرب إلى عميق نفوسهم فيبعث فيهم من جديد حياة القلب والعقل معًا.

محمد عبد الله دراز

أستاذ في الأزهر الشريف

باريس ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٦م

شكروتنبيه

كان من فضل الله أن تولى أستاذنا الكبير (محمود محمد شاكر) تقديم كتاب (الظاهرة القرآنية) إلى القراء، هذا التقديم الثمين، الذي يعد بحق من أروع ما كتب في مسألة اتصال بيان العرب في الجاهلية بقضية (إعجاز القرآن).

وإني لأرجو الله مخلصًا أن يتولى عنا جزاء أستاذنا بقدر ما بذل من جهده، وما ضحى من وقته على عظم تبعاته وخطر مسئولياته.

وإني لأتقدم بالشكر هنا إلى الأستاذ الدكتور (محمود قاسم) رئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة، على توجيهاته التي أفدت منها كثيرًا، وإلى الأستاذ المحدث (محمد فؤاد عبد الباقي) على تفضله بتحقيق ما عسر علي تحقيقه من أحاديث الكتاب، وهي التي رمزنا إليها في الهامش بحرف (ف)

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المترجم

تقديم

فصل في إعجاز القرآن

بقلم الأستاذ محمود محمد شاكر

الحمد لله وحده لا شريك له، حمدًا يقربنا إلى رضوانه، وصلاة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل، صلاة تزلفنا إلى جنته.

هذا كتاب (الظاهرة القرآنية) وكفى، فليس عدلا أن أقدم كتابًا هو يقدم نفسه إلى قارئه، وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي وبحسب كتابه أن يشار إليه، وإنه لعسير أن أقدم كتابًا هو نهج مستقل، أحسبه لم يسبقه كتاب مثله من قبل. وهو منهج متكامل يفسره تطبيق أصوله، كما يفسره حرص قارئه على تأمل مناحيه.

ولا أقول هذا ثناء، فأنا أعلم أن رجلا أثنى على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال له: «ويلك! قطعت عنق صاحبك»، قالها ثلاثًا (مسند أحمد). ومالك أعزُّ عليَّ من أن أقطع عنقه بثنائي أو أهلكه بإطرائي.

ولكن أحسبني من أعرف الناس بخطر هذا الكتاب، فإن صاحبه قد كتبه لغاية بيّنها، ولأسباب فصّلها. وقد صهرتني المحن دهرًا طويلًا، فاصطليت بالأسباب التي دعته إلى اتخاذ منهجه في تأليف هذا الكتاب، ثم أفضيت إلى الغاية التي أرادها، بعد أن سلكت إليها طرقًا موحشة مخوفة. وقد قرأت الكتاب وصاحَبتُه، فكنت كلما قرأت منه فصلا وجدت نفسي كالسائر في دروب قد طال عهدي بها، وخيل إليَّ أن مالكًا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط في مثل الفتن التي سقطتُ فيها من قبل، ثم أقال الله عثرته بالهداية فكان طريقه إلى المذهب الصحيح، هو ما ضمنه كتابه

مـن بعض دلائل إثبات إعجاز القـرآن، وأنه كتاب منزّل، أنزله الذي يعلم الخبء في السماوات والأرض، وأن مبلغه إلى الناس ﷺ رسول صادق قد بلغ عن ربه ما أمره بتبليغه، وأن بين هذا الرسول الصادق وبين الـكلام الذي بلّغه حجازًا فاصلًا، وأن هذا الحجاز الفاصل بين القرآن وبين مبلغه حقيقة ظاهرة، لا يخطئها من درس سـيرة رسـول الله فاحصًا متأملًا، ثم درس كتاب الله بعقل يقظ غير غافل.

وهذا المنهج الذي سـلكه مالك، منهج يسـتمد أصوله من تأمل طويـل فـي طبيعة النفس الإنسـانية، وفـي غريزة التديـن في فطرة البشـر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحيانًا، ولكنها تكشـف عن مسـتور التدين في كل إنسـان. ثم هو يسـتمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى. ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسـه، دليلًا على صدق نفسه، أنه كلام الله، المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه.

وفي خلال هذا المنهج تسـتعلن لك المحنـة التي عاناها مالك، كمـا عانيتها أنـا، وكما عاناها جيل من المسـلمين في هذا القرن. بل إنك لتجد المحنة ماثلة في (مدخل الدراسـة) وهو الفصل الذي استفتح به كتابه، فقد صور لك مشكلة الشباب المسلم المتعلم في هذا العصر، وما كان قاسـاه وما يزال يقاسـيه، من العنت في إدراك إعجاز القرآن، إدراكًا يرضاه ويطمئن إليه.

وهذا (العقل) الحديث الذي يفكر به شـباب العالم الإسـلامي، والذي يريد أن يدرك ما يرضيه ويطمئن إليه من دلائل إعجاز القرآن، هـو لب المشـكلة، فإن (العقل) هبة الله لكل حي، ولكن أسـاليب تفكيره كسـب يكتسبه من معالجة النظر ومن التربية ومن التعليم،

ومـن الثقافة ومن آلاف التجـارب التي يحياها المرء في هذه الحياة.
فينبغـي قبـل كل شـيء، أن نتدبـر أمر هـذا (العقـل) الحديث في العالم الإسـلامي؛ لأن فهم هذا (العقل)، هو الذي يحدد لنا طريقنا ومنهجنا في كل دراسـة صحيحة، نحب أن نقدمها إليه حتى يطمئن ويرضى.

فمنذ أول الإسـلام، خاضـت الجيوش الإسـلامية معارك الحرب فـي جميع أنحاء الدنيا، وخاض معها العقل الإسـلامي معارك أشـد هـولاً حيث نزل الإنسـان المسـلم. وتقوضـت أركان الدول تحت وطأة الجند المظفر، وتقوضت معها أركان الثقافات المتباينة تحت نور العقل المسـلم المنصـور، وظلت الملاحم دائـرة الرحى قرونًا متطاولـة، في ميادين الحرب وميادين الثقافة، حتى كان هذا العصر الأخير.

انبعثـت الحضـارة الأوربية، ثم انطلقت بكل سـلاحها لتخوض في قلب العالم الإسـلامي، أكبر معركة في تاريخنا وتاريخهم. وهي معركة لم يحط بأساليبها وميادينها أحد بعد في هذا العالم الإسلامي ولم يتقص أحد آثارها فينا. ولم يتكفل بدراستها من جميع نواحيها من يطيق أن يدرس، ولسـت أزعم أني سأدرسـها فـي هذا الموضع، ولكن سأدل على طرف منها، ينفع قارئ هذا الكتاب، إذا صح عزمه على معاناة دراسته دراسة الحريص المتغلغل.

لـم تكـن المعركـة الجديـدة بيـن العالـم الأوربي المسـيحي، وبيـن العالم الإسـلامي، معركة في ميدان واحد، بـل كانت معركة فـي ميدانين: ميـدان الحـرب، وميـدان الثقافة. ولـم يلبـث العالم الإسـلامي أن ألقـى السـلاح في ميـدان الحرب؛ لأسـباب معروفة. أما ميـدان الثقافة، فقد بقيت المعارك فيـه متتابعة جيلاً بعد جيل،

بـل عامًا بعد عـام، بل يومًا بعد يـوم. وكانت هـذه المعركة أخطر المعركتيـن، وأبعدهما أثرًا، وأشـدهما تقويضًا للحياة الإسـلامية والعقل الإسـلامي. وكان عدونا يعلم ما لا نعلم، ويدرك من أسرارها ووسـائلها ما لا ندرك، ويعرف من ميادينهـا ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسـلحة ما لا نصطنع، ويتحرى لها من الأسـباب المفضية إلـى هلاكنا ما لا نتحرى أو نلقي إليه بالًا. وأعانه وأيده أن سـقطت الدول الإسـلامية جميعًا هزيمة في ميدان الحرب. فسقطت في يده مقاليـد أمورها في كل ميدان من ميادين الحياة، وصار مهيمنًا على سياستها واقتصادها وصحافتها، أي سقطت في يده مقاليد التوجيه الكامل للحياة الإسلامية، والعقل الإسلامي.

وميادين معركـة الثقافـة والعقـل ميادين لا تعـد، بل تشـمل المجتمـع كلـه في حياتـه وفي تربيته وفي معايشـه، وفـي تفكيره وفـي عقائـده وفي آدابه وفي فنونه وفي سياسـته، بـل كل ما تصبح به الحياة حياة إنسـانية، كما عرفها الإنسـان منذ كان على الأرض. والأسـاليب التي يتخذها العدو للقتال في معركة الثقافة، أسـاليب لا تعـد ولا تحصـى؛ لأنهـا تتغيـر وتتبـدل وتتجدد علـى اختلاف الميادين وتراحبها وكثرتها، وأسـلحة القتال فيها أخفى الأسلحة؛ لأن عقـل المثقف يتكون يومًا بعد يوم، بل سـاعة بعد سـاعة، وهو يتقبل بالتربية والتعليم والاجتماع، أشـياء يُسَلِّمها بالإلف الطويل وبالعرض المتواصـل وبالمكر الخفي، وبالجدال المضلل وبالمراء المتلـون وبالهـوى المتغلب، وبضـروب مختلفة مـن الكيد الذي يعمـل في تحطيم البنـاء القائم، لكي يقيم العدو علـى أنقاضه بناءً كالذي يريد ويرجو.

وقد كان ما أراد الله أن يكون، وتتابعت هزائم العالم الإسلامي في

ميدان الثقافة جيلا بعد جيل، وكما بقيت معارك الحرب متتابعة سرًا مكتومًا لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية وجندها حتى هذا اليوم، بقيت أيضًا معارك الثقافة على تطاولها، سرًا خافيًا لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية وجندها؛ بل أكبر من ذلك: فقد أصبح أكثر قادة الثقافة في العالم الإسلامي وأصبح جنودها أيضًا، تبعًا يأتمرون بأمر القادة من أعدائهم، عارفين أو جاهلين أنهم هم أنفسهم قد انقلبوا عدوًا للعقل الإسلامي الذي ينتسبون إليه، بل الذي يدافعون عنه أحيانًا دفاع غيرة وإخلاص.

لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالًا بهدى، أو أن يصارع باطلًا بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة؛ بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولًا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلًا بمثل. وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان يبغي ويريد.

وقد فصل مالك في (مدخل الدراسة) محنة (العقل) الحديث في العالم الإسلامي، على يد أمضى أسلحة العدو في تهديم بعض جوانب الثقافة، بل أهم جوانبها، وهو سلاح (الاستشراق)، سلاح لم يدرسه المسلمون بعد، ولم يتتبعوا تاريخه، ولم يكشفوا عن مكايده وأضاليله، ولم يقفوا على الخفي من أسرار مكره، ولم يستقصوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية؛ بل في أكثر نواحي حياتهم الإنسانية، كيف؟ بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون، فهم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المتعلم،

وثقافة تتشربها النفوس، ونظر تقتفيه العقول، حتى كان كما قال مالك: «إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين، قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها» وتفصيل أثر هذا الإشعاع في تاريخنا الحديث، وفي سياستنا وفي عقائدنا، وفي كتبنا وفي ديننا وفي أخلاقنا وفي مدارسنا وفي صحافتنا، وفي كل أقوالنا وأعمالنا، شيء لا يكاد يحيط به أحد.

وهذا الإشعاع كما سماه مالك، كان من أعظم الأسباب وأبعدها خطرًا في (العقل) الحديث، الذي يريد أن يدرك دلائل إعجاز القرآن إدراكا يرضى عنه ويطمئن إليه. وهو الذي أوقع الشك في الأصول القديمة التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن، بل أكبر من ذلك، فإنه قد أتى بأساليب غاية في الدهاء والخفاء، أفضت إلى تدمير الوسائل الصحيحة التي ينبغي أن يتذرع بها كل من درس نصًا أدبيًا حتى يتاح له أن يحكم على جودته أو رداءته، فضلًا عن بلاغته أو إعجازه.

وقد ذكر مالك في (مدخل الدراسة) تلك القضية الغريبة التي عرفت بقضية (الشعر الجاهلي)، والتي أثارها المستشرق (مرجليوث) في بعض مجلات المستشرقين، ثم تولى كبرها (طه حسين) في كتابه (في الشعر الجاهلي)، يوم كان أستاذًا للأدب العربي بالجامعة المصرية. ولكني أذكر ـ كما ذكر مالك ـ أن هذه القضية بأدلتها ومناهجها، قد تركت في (العقل) الحديث في العالم الإسلامي، أثرًا لا يمحى إلا بعد جهد جهيد؛ والعجب أن (مرجليوث) قد أتى في بحثه بزيف كثير، كان هو الأساس الذي بنى عليه هذا (العقل)، وقد حاول مئات من رجال الفكر أن يزيفوا الأدلة والمناهج، ولكن هذا الزيف بقي بعد ذلك طابعًا مميزًا لأكثر ما ينشره الطلبة والأساتذة إلى يومنا هذا. ولا تحاكم مرجليوث

وأشياعه إلى رأيك ونظرك، بل دع محاكمته إلى مستشرق مثله، هو (آربـري)، يقول في خاتمة كتابه (المعلقات السبع) وذكر أقوال مرجليوث وفندها: «إن السفسطة وأخشى أن أقول: الغش في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ (مرجليوث)، أمر بيِّن جدًا، ولا تليق البتة برجل كان، ولا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره».

وهـذا حكم شـنيع، لا علـى (مرجليوث) وحده، بـل على كل أشياعه وكهنته وعلى ما جاءوا به من حطامٍ الفكر.

ولكـن العجـب عندي بعد ذلـك أن مالكًا ارتكـز على ذكر هذه القضيـة، وعلى أثرها فـي العقل الحديث، ثم انطلق منها إلى نتيجة أخرى فقـال: «وعلى هـذا فالمشـكلة بوضعها الراهـن تتجاوز في مداها نطاق الأدب والتاريخ، وتهدم مباشـرة منهج التفسـير القديم كله، ذلك التفسـير القائم علـى الموازنة الأسـلوبية، معتمدًا على الشـعر الجاهلي كحقيقـة لا تقبل الجدل؛ وعلى أيـة حال فقد كان مـن الممكن أن تثور هذه المشـكلة تبعًا للتطـور الجديد في الفكر الإسـلامي، وإنما بصورة أقل ...، فمنهج التفسير القديم يجب أن يتعدل في حكمة وروية، لكي يتفق مع مقتضيات الفكر الحديث»

ثـم قال: «لقد قام إعجـاز القرآن حتى الآن علـى البرهان الظاهر على سـمو كلام الله فوق البشـر. وكان لجوء التفسـير إلى الدراسة الأسـلوبية لكـي يضع لإعجاز القرآن أساسًـا عقليًا. فلـو أننا طبقنا نتائـج فـرض (مرجليوث)، لانهار ذلك الأسـاس، ومـن هنا توضع مشـكلة التفسـير على أساس مهم بالنسـبة لعقيدة المسلم، أعني: برهان إعجاز القرآن في نظره»

ثـم أفضى إلى هذا الحكم: «والحق أنه لا يوجد مسـلم، وخاصة فـي البلاد غير العربية - يمكنه أن يـوزان موضوعيًا بين آية قرآنية،

وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلي . فمنذ وقت طويل ، لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية ، ليمكننا أن نستنبط من موازنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة »

وأنا أحب أن أناقش هذه المقالة حتى أعين القارئ على أن يضع كتاب (الظاهرة القرآنية) في مكانه الذي ينبغي له ، وحتى تتبين له معالم الطريق الذي يسير فيه وهو يقرأ هذا الكتاب ، وحتى يستفيد من أدلته وبراهينه قوة تعينه على أن يضع أساسًا يقيم عليه عقيدته وإيمانه .

ولا أدري ما الذي ألجأ أخي مالكًا إلى ذكر (تفسير القرآن) ومنهجه القديم في هذا الموضع ؟

إنه إقحام لباب من علوم الإسلام قائم برأسه لا يمسه فرض (مرجليوث) من قريب أو بعيد . وعلم تفسير القرآن كما أسسه القدماء ، لا يقوم على موازنة الأساليب ، اعتمادًا على شعر الجاهلية أو شعر غير الجاهلية ، وإذا اقتضتنا الحاجة أن ندخل تعديلًا على منهج التفسير القديم ، فإنه عندئذ تعديل لا علاقة له البتة بالشعر الجاهلي ، لا من قبل الشك في صحته ، ولا من قبل موازنة الأساليب الجاهلية بأسلوب القرآن . وكل ما عند القدماء من ذكر الشعر الجاهلي في تفسيرهم ، فهو أنهم يستدلون به على معنى حرف في القرآن ، أو بيان خاصة من خصائص التعبير العربي ، كالتقديم والتأخير والحذف وما إلى ذلك ، وهذا أمر يصلح له شعر الجاهلية ، كما يصلح له شعر الإسلام ؛ وغاية علم تفسير القرآن – كما ينبغي أن يعلم – إنما هي بيان معاني ألفاظه مفردة ، وجمله مجتمعة ، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المباني ، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص ، وآيات الأداب وآيات الأحكام ، وسائر ما اشتملت

عليه معاني القرآن. وهو أمر عن (إعجاز القرآن) بمعزل.

أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي، أو بقضايا الشعر جميعًا، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية، وأساليب العربية وغير العربية وموازنتها بأسلوب القرآن، فهو علم (إعجاز القرآن)، ثم (علم البلاغة).

ولا مناص لمتكلم في (إعجاز القرآن)، من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلًا ظاهرًا لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما:

أولاهما: أن (إعجاز القرآن) كما يدل عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أنه رسول الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي، من نحو قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

(هود: ١٣، ١٤)

وقوله:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

(الإسراء: ٨٨)

إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك.

فمـا هو بتحدٍّ بالإخبـار بالغيب المكنـون ، ولا بالغيـب الذي يأتي تصديقـه بعد دهر من تنزيلـه ، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان .

ثانيهما : أن إثبات دليل النبوة ، وتصديق دليل الوحي ، وأن القرآن تنزيـل من عند الله ، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سـبحانه ، لا يكون منها شـيء يدل على أن القرآن معجز ، ولا أظن أن قائلًا يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجـزة ، بالمعنـى المعروف في شـأن إعجاز القرآن ، مـن أجل أنها كتـب منزلة من عند الله . ومن البين أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه ، بمجرد سماع القرآن نفسه ، لا بما يجادلهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله ، أو تصديق نبوته ، ولا بمعجزة كمعجزات إخوانه من الأنبياء مما آمن على مثله البشـر ، وقد بيّن الله في غير آية من كتابه أن سـماع القرآن يقتضيهـم إدراك مباينته لكلامهم ، وأنه ليس من كلام بشـر ، بل هو كلام رب العالمين وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : ٦)

فالقرآن المعجز هـو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهانًا على إعجاز القرآن .

والخلـط بين هاتيـن الحقيقتيـن ، وإهمـال الفصـل بينهما في التطبيق والنظر ، وفي دراسة (إعجاز القرآن) ، قد أفضى إلى تخليط شـديد في الدراسـة قديمًا وحديثًـا ، بل أدى هذا الخلـط إلى تأخير علـم (إعجاز القـرآن) و(علم البلاغة) ، عن الغايـة التي كان ينبغي أن ينتهيا إليها .

وحسن أن أزيل الآن لبسًا قد يقع فيه الدارس لكتاب (الظاهرة القرآنية)، ففي (مدخل الدراسة)؛ وفي بعض فصول الكتاب ما يوهم أن من مقاصده تثبيت قواعد في (علم إعجاز القرآن)، من الوجه الذي يسمى به القرآن معجزًا. وهو خطأ، فإن منهج مالك في تأليفه دالّ أوضح الدلالة على أنه إنما يُعنى بإثبات صحة دليل النبوة، وبصدق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، وأنه كلام الله لا كلام بشر، وليس هذا هو (إعجاز القرآن) كما أسلفت، بل هو أقرب إلى أن يكون بابًا من (علم التوحيد)، استطاع مالك أن يبلغ فيه غايات بعيدة، قصر عنها أكثر من كتب من المحدثين وغير المحدثين: فجزاه الله عن كتابه أحسن الجزاء.

أما مسألة (إعجاز القرآن)، فقد بقيت خارج هذا الكتاب، وهي عندي أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها (العقل) الحديث، كما يسمونه، حتى بعد أن يتمكن من إرساء كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله ﷺ، وبصدق الوحي وبصدق التنزيل. وأيضًا فهي المسألة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بقضية الشعر الجاهلي، وبالكيد الخفي الذي اشتملت عليه هذه القضية، بل إنها لترتبط ارتباطًا لا فكاك له بثقافتنا كلها، وبما ابتلي به العرب في جميع دور العلم، من فرض منهاج خال من كل فضيلة في تدريس اللغة وآدابها. بل إنها لتشمل ما هو أرحب من ذلك، تشمل بناء الإنسان العربي أو المسلم، من حيث هو إنسان قادر على تذوق الجمال في الصورة والفكر جميعًا.

ومعرفة معنى (إعجاز القرآن)، ما هو وكيف كان، أمر لا غنى عنه لمسلم ولا لدارس، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه امرؤ بغير تثبت من معناه، وتمكن من تاريخه، وتتبع للآيات الدالة على حقيقته.

وأنا لا أزعمٍ أني مستقصيه في هذا الموضع، ولكني مستعين بالله، فذاكر طرفا مما يعين المرء على معرفته.

وذلك أن رسول الله ﷺ -بأبي هو وأمي- حين فجأه الوحي في غار حراء، وقال له: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئ»، ثم لم يزل حتى قرأ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١- ٥)

رجع بها وهو يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. وذلك أنه قد أتاه أمر لا قِبَل له به، وسمع مقالاً لا عهد له بمثله، وكان رجلًا من العرب، يعرف من كلامها ما تعرف، وينكر منه ما تنكر؛ كان هذا الروع الذي أخذه - بأبي هو وأمي- أول إحساس في تاريخ البشر، بمباينة هذا الذي سمع، للذي كان يسمع من كلام قومه، وللذي كان عرف من كلام نفسه. ثم حمي الوحي وتتابع، وأمره ربه أن يقرأ ما أنزل عليه على الناس على مُكث. فتتبع الأفراد من عشيرته وقومه، يقرأ عليهم هذا الذي نزل إليه. ولم يكن من برهانه ولا مما أُمِر به أن يلزمهم الحجة بالجدال حتى يؤمنوا أنما هو إله واحد، وأنه هو نبي الله، بل طالبهم بأن يؤمنوا بما دعاهم إليه، ويقروا له بصدق نبوته، بدليل واحد هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه. ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة، إلا أن هذا المقروء عليهم، كان هو في نفسه أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو، ولا من كلام بشر مثله. ثم أيضًا لا معنى لها البتة إلا أن يكون وكان في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تمييزًا واضحًا بين الكلام الذي

هو من نحو كلام البشر، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم.

وكان هذا القرآن يُنَزَّل عليه منجمًا، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليــلًا كما تعلم، فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوتــه. وإذن، فقليل ما أوحــي إليه من الآيات يومئذ، وهو على قلته وقلــة ما فيه من المعاني التي تتامَّت وتجمعت في القرآن جملة كما نقرؤه اليوم، منطوٍ على دليل مســتبين قاهر، يحكم له بأنه ليس من كلام البشــر. وبذلــك يكون دليــلًا على أن تاليه عليهم، وهو بشــر مثلهم، نبي من عند الله مرسل.

فــإذا صح هذا، وهو صحيح لا ريب فيه، ثبت ما قلناه أولًا من أن الآيــات القليلة مــن القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثــم القرآن كله، أي ذلك كان، في تلاوته على سامعه من العرب، هو الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأنّ هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشــر، وذلك من وجه واحد، وهو وجه البيان والنظم.

وإذا صــح أن قليل القرآن وكثيره ســواء من هــذا الوجه، ثبت أن مــا في القرآن جملة من حقائق الأخبار عن الأمم الســالفة، ومن أنباء الغيب ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما لم يعرفه البشــر من أســرار الكون إلا بعد القرون المتطاولــة من تنزيله- كل ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب، وهو أن يســتبينوا في نظمه وبيانــه انفكاكــه من نظم البشــر وبيانهم، من وجه يحســم القضاء بأنــه كلام رب العالمين. وههنا معنى زائد، فإنهم إذا أقروا أنه كلام رب العالميــن بهذا الدليل، كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من أخبــار الأمم وأنباء الغيب ودقائق التشــريع، وعجائب الدلالات على أســرار الكون، هو كله حق لا ريب فيه، وإن ناقض ما يعرفون، وإن بايــن مــا اتفقوا على أنــه عندهم أو عند غيرهم حق لا يشــكون

فيــه . وإذن فإقرارهم من وجه النظــم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين ، دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ما جاء فيه من كل ذلك ، أما صحة ما جاء فيه ، فليست هي الدليل الذي يطالبهم بالإقرار بأن نظم القــرآن وبيانه ، مباين لنظم البشــر وبيانهم ، وأنه بهذا من كلام رب العالمين . وهذا أمر في غاية الوضوح .

فمن هــذا الوجه -كما ترى- طولب العرب بالإقرار والتســليم ، ومــن هذا الوجه تحيرت العرب فيما تســمع مــن كلام يتلوه عليهم رجل منهم ، تجده من جنس كلامها ؛ لأنه نزل بلسانهم ، لسان عربي مبيــن ؛ ثم تجــده مباينًا لكلامها ، فما تدري ما تقــول فيه من طغيان اللــدد والخصومة . وإنه لخبر مشــهور ، خبر تحيــر النفر من قريش فيه وعلى رأســهم (الوليد بــن المغيرة) . لقد ائتمــرت قريش يومئذ حيــن حضر الموســم ، لكي يقولوا في هذا الــذي يتلى عليهم وعلى الناس قولًا واحدًا لا يختلفون فيه ، وأداروا الرأي بينهم في تاليه على أهل المواســم ، وتشــاوروا أن يقولوا : كاهن ، أو مجنون ، أو شــاعر أو ســاحر ، فلما آلت المشــورة إلى ذي رأيهم وســنهم وهو (الوليد بــن المغيرة) ، رد كل ذلك بالحجــة عليهم ، ثم قال : «والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ؛ وما أنتم بقائلين من هذا شــيئًا إلا عــرف أنه باطــل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ســاحر جــاء بقول يفرق بيــن المرء وأبيه ، وبين المــرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته» .

فهذا التحير المظلم الذي غشَّــاهم وأخذ منهم بالكظم ، والذي نعته الوليد فاســتجاد النعت ، كان تحيرًا لما يســمعون من نظمه وبيانه ، لا لما يدركون من دقائق التشــريع ، وخفي الدلالات ، وما لا يؤمنون به من الغيب ، وما لا يعرفون من أنباء القرون التي خلت من قبل .

وحمي الوحي وتتابع عامًا بعد عام، وأقبل ﷺ يلح جهرة فيقرأ القرآن عليهم وعلى من طاف بهم من العرب في بطن مكة، وفي مواسم الحج والأسواق؛ وهبت قريش تناوئه وتنازعه، وتلج في اللدد والخصومة، وفي الإنكار والتكذيب، وفي العداوة والأذى؛ فلما طال تكذيبهم وإنكارهم، على ما يجدون في أنفسهم من مثل الذي وجد الوليد، ومن مثل الذي آمن عليه مَن آمن مِن قومه العرب، صب الله عليهم من الوحي ما هالهم وأفزعهم؛ كانوا يتحيرون في هذا الذي يتلى عليهم، وظل رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا والمسلمون قليل مستضعفون في أرض مكة، وظل الوحي يتتابع وهو يتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعشر سور مثله مفتريات. فلما انقطعت قواهم، قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعًا منافذ اللدد والعناد، فقال:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

وكذلك كان..

فكان هذا البلاغ القاطع الذي لا معقب له، هو الغاية التي انتهى إليها أمر هذا القرآن، وأمر النزاع فيه، لا بين رسول الله وبين قومه من العرب فحسب، بل بينه وبين البشر جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا.. بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين متظاهرين. وهذا البلاغ الحق الذي لا معقب له من بين يديه ولا من خلفه، هو الذي اصطلحنا عليه فيما بعد، وسميناه (إعجاز القرآن).

وهذا الذي اقتصصته لك، تاريخ مختصر أشد الاختصار، ولكنه مجزئ في الدلالة على تحديد معنى (إعجاز القرآن) بالمعنى الذي

يفهم من هذا اللفظ على إطلاقه، ومجزئ في الدلالة على هذا (الإعجاز). من أي وجوه الإعجاز كان إعجازًا، وإنه ليكشف عن أمور لا غنى لدارس عن معرفتها:

الأول: أن قليل القرآن وكثيره في شأن (الإعجاز) سواء.

الثاني: أن الإعجاز كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم بيان الثقلين جميعًا، إنسهم وجنهم متظاهرين.

الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر، والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر.

الخامس: أن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقًا لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه، من كل معنى أو غرض، مما يعتلج في نفوس البشر.

السادس: أن هذا التحدي للثقلين جميعًا إنسهم وجنهم متظاهرين، تحدّ مستمر قائم إلى يوم الدين.

السابع: أن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعد دليلًا على أنه من عند الله تعالى، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنه كلام رب العالمين، لا كلام بشر مثلهم.

فهذه أمور تستخرجها دراسة تاريخ نزول القرآن، ومدارسة آياته في جدال المشركين من العرب في صحة الآيات التي جاءتهم من السماء، كما جاءت سائر آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وحسبك في بيان ذلك ما قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحي إليّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» (صحيح البخاري)، فالقرآن هو آية الله في الأرض، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزًا للعرب، ثم للبشر، ثم للثقلين جميعًا.

وكل لبس يقع في ضبط هذه الأمور المتعلقة بمعنى (إعجاز القرآن)، وكل اختلال في تمييزها وتحديد ما تقتضيه في العقل والنظر، سبيل إلى انتشار أغمض اللبس، وأبلغ الخلل في فهم معنى (إعجاز القرآن)، من الوجه الذي صار به القرآن معجزًا للعرب، ثم لسائر البشر على اختلاف ألسنتهم، ثم للثقلين جميعًا متظاهرين.

هذا بعض ما أدى إليه النظر المجرد في استخراج المعنى الذي هو مناط التحدي ومفصل الإعجاز؛ وأرجو أن أكون قد بلغت في كشفه مقنعًا ورضى. ولكنه بقي ما لا بد منه: أن نستنبط بهذا الأسلوب من النظر المجرد، صفة القوم الذين تحداهم، وصفة لغتهم.

فإذا صح أن (الإعجاز) كائن في رصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين، وأن خصائصه مباينة للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم، لم يكن لتحديهم به معنى إلا أن تجتمع لهم وللغتهم صفات بعينها:

أولها: أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزًا، قادرة بطبيعتها هي، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر

المباينة له من كل الوجوه.

ثانيها: أن أهلها قادرون على إدراك هذا الحجاز الفاصل بين الكلامين. وهذا إدراك دالّ على أنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه، قدرًا وافرًا يصح معه أن يتحداهم بهذا القرآن، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه، أن تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل.

ثالثها: أن البيان كان في أنفسهم أجلَّ من أن يخونوا الأمانة فيه، أو يجوروا عن الإنصاف في الحكم عليه. فقد قرَّعهم وعيرهم وسفَّه أحلامهم وأديانهم، حتى استخرج أقصى الضرورة في عداوتهم له. وظل مع ذلك يتحداهم، فنهتهم أمانتهم على البيان عن معارضته ومناقضته وكان أبلغ ما قالوه:

﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣١)

ولكنهم كفوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئا؛ هذه واحدة. وأخرى: أنه لم ينصب لهم حكمًا، بل خلّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له، ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان، فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة.

رابعها: أن الذين اقتدروا على مثل هذه اللغة، وأوتوا هذا القدر من تذوق البيان، ومن العلم بأسراره، ومن الأمانة عليه، ومن ترك الجور في الحكم عليه، يوجب العقل أن يكونوا كانوا قد بلغوا في الإعراب عن أنفسهم بألسنتهم المبينة عنهم، مبلغًا لا يدانى.

وهذه الصفات تفضي بنا إلى التماس ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلامهم، إن كان بقي من كلامهم شيء، فالنظر المجرد أيضًا، يوجب في نعت ما خلفوه:

أن تجتمع فيه ضروب مختلفة من البيان، لا يجزئ أن تكون دالة على سعة لغتهم وتمامها، بل على سجاحتها أيضًا، حتى تلين لكل بيان تطيقه ألسنة البشر على اختلاف ألسنتهم.

فهل بقي من كلامهم شيء يستحق أن يكون شاهدًا على هذا ودليلًا. نعم، بقي (الشعر الجاهلي)!

وإذن! ينبغي أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها. فإن النظر المجرد والمنطق المتساوق والتمحيص المتتابع، كل ذلك قد أفضى بنا إلى تجريد معنى (إعجاز القرآن) مما شابه وعلق به، حتى خلص لنا أنه من قبل النظم والبيان، ثم ساقنا الاستدلال إلى تحديد صفة القوم الذين تحداهم وصفة لغتهم، ثم خرج بنا إلى طلب نعت كلامهم، ثم التمسنا الشاهد والدليل على الذي أدانا إليه النظر، فإذا هو (الشعر الجاهلي).

وإذن، فالشعر الجاهلي هو أساس مشكلة (إعجاز القرآن) كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث؛ وليس أساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن على المنهج القديم كما ظن أخي مالك، وكما يذهب إليه أكثر من بحث أمر إعجاز القرآن على وجه من الوجوه.

ولكن الشعر الجاهلي قد صُبَّ عليه بلاء كثير، آخرها وأبلغها فسادًا وإفسادًا ذلك المنهج الذي ابتدعه (مرجليوث) لينسف الثقة به، فيزعم أنه شعر مشكوك في روايته، وأنه موضوع بعد الإسلام؛ وهذا المكر الخفي الذي مكره (مرجليوث) وشيعته وكهنته والذين ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا، كما شهد بذلك رجل من جنسه هو (آربري)، كان يطوي تحت أدلته ومناهجه وحججه، إدراكًا لمنزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن، لا إدراكًا صحيحًا مستبينًا، بل إدراكًا خفيًا مبهماً، تخالطه

ضغينة مسكنة للعرب وللإسلام.

وهـذا المستشـرق وشـيعته وكهنته، كانـوا أهون شـأنًا من أن يحـوزوا كبيـرًا بمنهجهم الذي سـلكوه، وأدلتهم التـي احتطبوها لما في تشـكيكهم من الزيف والخـداع؛ ولكنهم بلغوا ما بلغوا من اسـتفاضة مكرهـم وتغلغله فـي جامعاتنا، وفي العقـل الحديث في العالم الإسـلامي، بوسائل أعانت على نفاذهم، ليست من العلم ولا من النظر الصحيح في شـيء؛ وقد اسـتطاع رجال من أهل العلم، أن يسـلكوا إلى إثبات صحة الشـعر الجاهلي مناهج لا شك في صدقها وسـلامتها، بلا غش في الاسـتدلال وبلا خداع في التطبيق؛ ولامراء في الذي يسـلم به صريح العقـل وصريح النقل، إلا أنهم لم يملكوا بعد من الوسائل ما يتيح لهم أن يبلغوا بحقهم ما بلغ أولئك بباطلهم.

وقد ابتليت أنا بمحنة (الشـعر الجاهلي)، عندما ذرَّ قرن الفتنة أيـام كنـت طالبًا فـي الجامعة؛ ودارت بـي الأيام حتـى انتهيت إلى ضـرب آخر من الاسـتدلال على صحة (الشـعر الجاهلـي)؛ لا عن طريق روايته وحسـب، بل عن طريق أخرى هـي ألصق بأمر (إعجاز القرآن). فإني محصت ما محصت من الشعر الجاهلي، حتى وجدته يحمل هو نفسـه في نفسـه أدلـة صحته وثبوتـه. إذ تبينت فيه قدرة خارقـة على (البيان)، وتكشـف لي عن روائع كثيـرة لا تُحَد، وإذا هو علم فريد منصوب لا في أدب العربية وحدها، بل في آداب الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام. وهذا الانفراد المطلق، ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شـعر بعده من شـعر العرب أنفسـهم، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته.

ولقد شـغلني (إعجاز القرآن) كما شغل العقل الحديث، ولكن شـغلني أيضًـا هذا (الشـعر الجاهلي)، وشـغلني أصحابه فأدى بي

طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت إليه، حتى صار عندي دليلًا كافيًا على صحته وثبوته. فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى أعيانهم، رأيتهم في هذا الشعر أحيانًا يغدون ويروحون، رأيت شابهم ينزو به جهله، وشيخهم تدلف به حكمته، ورأيت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق، وغاضبهم تربدّ سحنته حتى تظلم، ورأيت الرجل وصديقه، والرجل وصاحبته، والرجل الطريد ليس معه أحد، ورأيت الفارس على جواده، والعادي على رجليه، ورأيت الجماعات في مبداهم ومحضرهم، فسمعت غزل عشاقهم، ودلال فتياتهم، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون؛ كل ذلك رأيته وسمعته من خلال ألفاظ الشعر، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس وبُحة المستكين، وزفرة الواجد وصرخة الفزع، وحتى مثلوا بشعرهم نصب عيني، كأني لم أفقدهم طرفة عين، ولم أفقد منازلهم ومعاهدهم، ولم تغب عني مذاهبهم في الأرض، ولا مما أحسوا ووجدوا، ولا مما سمعوا وأدركوا، ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفي عني شيء مما يكون به الحي حيًا في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم (جزيرة العرب).

وهذا الذي أفضيت إليه من صفة الشعر الجاهلي كما عرفته، أمر ممكن لمن اتخذ لهذه المعرفة أسبابها، بلا خلط ولا لبس ولا تهاون ولا ملل. وهذه المعرفة هي أول الطريق إلى دراسة شعر أهل الجاهلية، من الوجه الذي يتيح لنا أن نستخلص منه دلالته على أنه شعر قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر أهل الإسلام. فإذا صح ذلك وهو عندي صحيح لا شك فيه- وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمقة، ملتمسين فيه هذه القدرة البيانية

التـي يمتـاز بها أهـل الجاهلية عمن جـاء بعدهم، ومسـتنبطين من ضـروب البيان المختلفـة التي أطاقتها قوى لغتهم وألسـنتهم. فإذا تم لنا ذلك، فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس في القرآن الذي أعجزهم بيانه، خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر.

وهاهنا أمر له خطر عظيم، فلا تظنن أن الشأن في دراسة (الشعر الجاهلـي)، هو شـأن المعانـي التـي تناولها، والأغـراض التي قيل فيها، والصور التي انطوى عليها، واللغة التي اسـتخدمها من حيث الفصاحـة والعذوبة وما يجـري مجراهما، بل الشـأن في ذلك أبعد وأعمـق وأعوص، إنـه تمييز القـدرة على البيـان، وتجريد ضروب هذا (البيان) علـى اختلافها، واسـتخلاص الخصائص التي أتاحت للغتهم أن تكون معدنًا للسمو، بالإبانة عن جوهر إحساسهم، سموًا يجعل للكلام حياة كنفخ الروح في الجسـد القائم، وكقوة الإبصار في العين الجامدة، وكسجية النطق في البضعة المتلجلجة المسماة باللسان.

فـإذا اتخذنا لهذه الدراسـة أهبتها، وأعددنا لها من الصبر والجد والحذر ما ينبغي لها، واللسـان لسـاننا، والقوم أسلافنا، والسلائق مغـروزة في أعمـاق طباعنا، ثم أصّلنا للدراسـة مناهج تعين عليها، واسـتحدثنا لهـا أسـلوبًا يلائمها، فعندئـذ يدنو الذي نـراه بعيدًا، ويتجلـى لنا مـا كان غامضًا، ويكشـف لنا (الشـعر الجاهلي) عن أروع روائعه، ويبذل لنا ما اسـتكن فيه واسـتتر من أصول (البيان) الإنساني، بغير تخصيص للغة العرب، فنراها ماثلة على أدق وجوهه وأغمضها، وفي أتم صوره وأكملها.

وهـذا الـذي أفضت فيه مـن ذكر الشـعر الجاهلي، ومـا وجدته فيه في نفسـي باب عظيم، أسـأل الله أن يعينني بحوله وقوته، حتى

أكشــف عنه وأجليه، وحتى أؤيــده بكل برهان قاطعٍ على تميزه عن كل شــعر العرب بعده، وبذلك يكون هو نفســه دليلًا حاسـمًا على صحة روايته، وعلى أن الرواة لم ينحلوه الشعراء افتراء عليهم.

وغيــر خــافٍ أن الذي وصلنا إلى هــذا اليوم من شــعر الجاهلية، قليــل مما روته الــرواة منه، والرواة القدماء أنفســهم لم يصلهم من شــعرها إلا الذي قــال أبو عمرو بن العــلاء، في أوائل القــرن الثاني مــن الهجرة: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافــرًا لجاءكم علم وشــعر كثير» ومع ذلك فهــذا القليل مجزئ إن شــاء الله فــي الدلالة علــى ما نريد مــن الإبانة عن تميز شــعرهم عن شــعر من جاء بعدهم، وفيه جمّ وافٍ من خصائــص البيان التي امتاز بها أهل الجاهلية. ولكن كيف بقي هذا الشــعر إلى يومنا هذا؟ بقي مــادة للغة العرب، وشــاهدًا على حرف من العربيــة، وعلى باب من النحــو، وعلى نكتة في البلاغة. وبقي ذخرًا للرواة، وركازًا يســتمد منه شــعراء الإســلام، ومنبعًا لتاريــخ العرب في الجاهليــة، بل بقي كنــزًا لعلوم العرب جميعًا، لكل علــم منه نصيب على قدره. ولكن غاب عنا أعظم ما بقي له هذا الشــعر: أن يكون مادة لدراســة البيان المفطور في طبائع البشر، مقارنًا بهذا البيان، الذي فات طاقة بلغاء الجاهلية، وكانت له خصائص ظاهرة، تجعل كل مقتدر بليغ مبين، وكل متــذوق للبلاغــة والبيان، لا يملك إلا الإقــرار له، بأنه من غير جنس ما يعهده ذوقه، وأن مبلغه إلى الناس نبي مرسل، وأنه لا يطيق أن يختلقه أو يفتريه؛ لأنه بشــر لا يدخل في طوقه إلا ما يدخل مثله في طوق البشر، وأنه إن تقوَّل غير ما أمر بتبليغه وتلاوته، بان للبشر كذبه، وحقّ عليه قول منزله من السماء سبحانه:

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾

(الحاقة: ٤٤ - ٤٧)

ولسائل أن يسأل: فحدثني إذن، لم بقي شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها؟ وكيف غاب هذا الذي زعمت عن أئمة العلم من قبلك؟ وكيف أخطأه علماء البلاغة، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الإبانة عن إعجاز القرآن، وهم أقرب بالتنزيل عهدًا منا ومنك؟ وما الذي صدَّ العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج، وما نهضت إلا للمراماة دون إعجاز القرآن، في القديم والحديث؟ وحق علي أن أجيب، ولكن يقتضيني جواب هذه المسألة أن أقتص قصة أخرى، لا أستوعب القول في حكايتها تفصيلًا، بل أوجز المقال فيها إيجازًا مدفوعًا عنه الخلل ما أطقت، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق؟

فأهل الجاهلية هم من وصفت لك منزلتهم من البيان، وقدرتهم على تصريفه بألسنتهم، وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة في قلوبهم ونفوسهم، وعلمهم بأسراره، وتغلغلهم في إدراك الحجاز الفاصل بين ما هو من نحو بيان البشر، وما ليس من بيانهم؛ أهل الجاهلية هؤلاء، هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم؛ هو في آيات الله بمنزلة عصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص في آيات أنبيائه، لتكون تلاوته على أسماعهم برهانًا قاهرًا يلزمهم بالإقرار له بصحة تنزيله من السماء على قلب رجل منهم، وأن هذا الرجل نبي مرسل، عليهم أن يتبعوه وأن يستجيبوا لما دعاهم إليه، فلما كذبوه وأنكروا نبوته، تحداهم أن يأتوا بمثل هذا الذي يسمعون في نظمه وبيانه، وألح عليهم يتحداهم في آيات منه كثيرة، ولكنهم وجدوا

في أنفسهم مفارقته لبيان البشر، وجدانًا ألجأهم إلى ترك المعارضة إنصافًـا للبيان أن يُجار على حقه، وتنزيهًا له أن يزري به جورهم عن هذا الحق.

وعلـى الذي تلقوه به مـن اللدد في الخصومة والعناد لم يلبث أن استـجاب له النفر بعد النفر إقرارًا وتسـليمًا بأن الكتاب كلام الله، وأن الرجل نبي الله، ثم تتابع إيمان المؤمنين منهم، حتى لم تبق دار من دور أهل الجاهلية إلا دخلها الإسلام أو عمَّها، وألقوا إليه المقادة على أنه لا يتم إيمان أحدهم حتى يكون هذا الرجل - بأبي هو وأمي- أحب إليه من أهله وولده. وهذه أعمالهم تصدق ذلك كله.

فأقبـل كل بليغ منهـم مبيـن، وكل متذوق للبيـان ناقد يتحفظ مـا نزل من القرآن ويتلـوه ويتعبد به، ويتتبع تنزيلـه تتبع الحريص المتلهف، ويصيخ له وينصت حين يتلى في الصلوات وعلى المنابر يومًـا بعد يوم؛ وشـهرًا بعد شـهر؛ وعامًا بعد عـام، وكلهم مخبت خاشـع لذكر الله وما نزل من الحق، يصدق إخباتهم وخشـوعهم ما قال الله سبحانه:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

(الزمر: ٢٣)

ثم صار للقرآن في جزيرة العرب دوي كدوي النحل، وخشـعت أسـماع للجاهلية -كانت بالأمس- للذي يتلـى عليهم من كلام الله الذي خلقهم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأخبتت ألسنة للجاهلية، إقرارًا لهذا القرآن بالعبودية، كما أقروا هم للذي اصطفى لغتهـم لكلامـه سـبحانه بالعبوديـة، وماجـت بهم جزيـرة العرب

مهللين مكبرين مسبحين، كلما علوا شرفًا أو هبطوا واديًا، وأقاموا تالين للقرآن بالغدو والآصال، وبالليل والأسحار وانطلقوا يتتبعون سنن نبيهم ويتلقفونها، وخلعوا عن قلوبهم ونفوسهم وعقولهم وألسنتهم ظلمة الجاهلية، ودخلوا بألسنتهم وعقولهم ونفوسهم وقلوبهم في نور الإسلام.

ثم طار بهم هذا القرآن في كل وجه، يدعون الناس أسودهم وأحمرهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويحملون إليهم هذا الكتاب المعجز بيانُه لبيان البشر، والذي نزل بلسانهم حجة على الخلق، وهدى يخرجهم من الظلمات إلى النور. فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام في كتاب (طبقات فحول الشعراء) حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب في أهل الجاهلية: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» فقال ابن سلام تعليقًا على ذلك: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب في الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يئولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب. وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

ولا يغررك ما قال (ابن سلام)، فتحسب أن أهل الجاهلية الذين هداهم الله للإسلام، طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم، فانصرفوا عنه صمًا وبكمًا، وخلعوه عن عقولهم وألسنتهم كما خلعوا جاهليتهم، فهذا باطل تكذبه أخبارهم، وينقصه منطق طبائع البشر وتاريخ حياتهم، بل كان أكبر ما لحقه من الضيم: أن نازعه القرآن فصرف همهم إليه، فكان نصيبه من إنشادهم وتقصيدهم القصائد

أقــل مما كان فــي جاهليتهم، ولكنه بقي مع ذلــك هو الذي يئوبون إليــه إذا شــق عليهم طول مدارســة القــرآن، وهو الذي يســتريحون إليــه إذا فرغوا مما فرض عليهم ربهم، وســن لهــم نبيهم ﷺ .وظل ذلك دأبهم في أول إســلامهم، ونشــأ أبناؤهم يســمعون منهم شعر جاهليتهم ويســتمعون إلى مكنوز بيانهم في ألســنتهم، فيخرجون أيضًا مركوزًا ذلك البيان في طباعهم، وينتقل ذلك بما يشبه العدوى إلى مُسْلِمَةِ الأعاجم وأبنائهم.

بحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا نزل معهم الذكر الحكيم، ونزل شــعر الجاهلية وتدارســوه وتناشــدوه، وقوموا به لسان الذين أســلموا من غير العرب. وأصبح زاد المتفقه في معرفة معاني كتاب ربه، هو مدارســة الشــعر الجاهلي؛ لأنه لا يســتقل أحد بفهم القرآن حتى يســتقل بفهمه وحســبك أن تعرف مصداق ذلك قول الشافعي فيمــا بعد، في القرن الثاني من الهجــرة: «لا يحل لأحد أن يفتي في ديــن الله، إلا رجلًا عرف بكتاب الله، بناســخه ومنســوخه ومحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله ومكيه ومدنيه وما أريد به. ويكون بعد ذلك بصيرًا بحديث رســول الله ﷺ وبالناســخ والمنسوخ، ويعرف مــن الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكــون بصيرًا باللغة بصيرًا بالشــعر، ومــا يحتاج إليه للســنة والقرآن». فليــس يكفي أن يكون عارفًا بالشــعر، بل بصيرًا به أشــد البصر، كما قال الشــافعي رحمه الله، والذي قاله الشــافعي بعد قرن، هو الــذي جرى العمل عليه في أول الإسلام.

واســتفاضت بالمســلمين الفتــوح، واســتفاض معهــم شــعر جاهليتهــم، وأســلمت الأمــم ودخلت فــي العربية كمــا دخلت في الإســلام، ونزل بيان القرآن كالغيث على فطــرة جديدة، فطرة أهل

الألســنة غير العربيــة ، بعد أن رويــت من بيان الجاهلية في الشــعر الجاهلي . وامتزجــت العرب من الصحابة والتابعين وأبنائهم ، بأهل هذه الألسنة التي دخلت في العربية ، فنشأ من امتزاج ذلك كله بيان جديد ، ظــل ينتقل ويتغير ويتبدل جيلًا بعــد جيل ، ولكن بقي أهله بعد ذلــك كله ، محتفظين بقــدرة عتيدة حاضرة ، هــي تذوق البيان تذوقًا عليمًا ، يعينهم على تمييز بيان البشــر كما تعهده ســلائقهم وفطرهم ، من بيان القرآن الذي يفارق خصائص بيانهم من كل وجه .

ثم فارت الأرض بالإســلام من حد الصين شــرقًا إلى حد الأندلس غربًا ، ومن حد بلاد الروم شــمالًا إلى حد الهند جنوبًا ، وســمع دوي القرآن العربي في أرجاء الأرض المعمورة . وقامت المســاجد في كل قريــة ومدينة وازدحمت في ســاحاتها صفوف عبــاد الرحمن ، وعلا منابرها الدعاة إلى الحق ، وتحلقت الحلق في كل مســجد ، وتداعى إليهــا طلاب العلــم ، فطائفة تتلقى القرآن من قرائــه ، وطائفة تدرس تفســير آياته ، وطائفة تروي حديث رســول الله عــن حفاظه ، وطائفة تأخذ العربية عن شــيوخها ، وطائفة تتلقف شعر الجاهلية والإسلام عن رواته ، طوائف بعد طوائف في أنحاء المساجد المتدانية ، طوائف مــن كل لون وجنس ولســان ، كلهــم طالب علم ، وكلهــم يتنقل من مجلس شــيخ إلى مجلس شــيخ آخر ، فكل ذلك علم لا يستغني عنه مســلم تال للقرآن . لا بل حتى أســواقهم قام فيها الشــعراء ينشدون شعرهم ، أو يتنافرون به ويتهاجون ، والرواة تحفظ ، والناس يقبلون ينصتــون ، وينقلبــون يتجادلــون ، وعجَّــت نواحــي الأرض بالقرآن وباللسان العربي ، لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب .

وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان في أهل كل دين ، وجاءوا بالمراء والجدل ، وباللدد والخصام ، وشققوا الكلام بالرأي والهوى ، فنشأت

بوادر من النظر في كل علم، وعندئذ نجم الخلاف، وانتهى الخلاف إلى الجرأة، وأفضت الجرأة يومًا إلى رجل في أواخر دولة بني أمية يقال له (الجعد بن درهم)، وكان شيطانًا خبيث المذهب، تلقى مذهبه عن رجل من أبناء اليهود، يقال له: (طالوت) فكذب القرآن في اتخاذ إبراهيم خليلًا، وفي تكليم موسى، إلى هذا وشبهه، وكان من قوله: إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها!!.. فضحى به خالد بن عبد الله القسري في عيد الأضحى، في نحو سنة ١٢٤ من الهجرة.

وكلام (الجعد) كما ترى، استطالة رجل جريء اللسان خبيث المنبت، بلا حجة من تاريخ أو عقل.

ولم تكد دولة بني العباس ترسي قواعدها حتى دخلت بعض العقول إلى فحص (إعجاز القرآن)، من باب غير باب السفه والاستطالة، فقام بالأمر كهف المعتزلة ولسانها: (أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام). فأتاه من قبل الرأي والنظر، حتى زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليها، فكانت هذه الصرفةُ هي المعجزة؛ أما معجزة القرآن فهي في إخباره بكل غيب مضى وكل غيب سيأتي. وهذه مقالة لا أصل لها إلا الحيرة والانبهار من هذا الذي أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم. وهب قوم يعارضونه ويجادلونه، منهم صاحبه أبو عثمان الجاحظ، فألف كتابه في (نظم القرآن)، وأنه غاية في البلاغة، وقال الجاحظ وغيره ومن يليهم، ولكن ظل الأمر محصورًا في إثبات (الصرفة) وإبطالها، وفي طرف من الاستدلال على بلاغة القرآن وسلامته مما يشين لفظه، وخلوه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة، وما فيه من نبأ الغيب، إلى آخر ما تجده مبسوطًا في كتب القوم،

والذي عرفت قولنا فيه فيما مضى من كلامنا.

ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عرفوا باسم المتكلمين، وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان وغلبة حجة ومناهضة دليل بدليل، حتى إذا صارت مسألة (إعجاز القرآن) مسألة تستوجب أن ينبري لها رجل صادق، انبرى لهؤلاء المتكلمين (أبو بكر الباقلاني) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ، والناس يومئذ بين رجلين، كما قال هو نفسه: «ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته؛ فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه، وليس هذا ببدع من ملحدة هذا العصر، وقد سبقهم إلى عُظْم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم» (كتابه إعجاز القرآنَ ص٥، ٦) فهذا هو الذي حفزه وأهاجه، حتى كتب كتابه المعروف (إعجاز القرآن).

وكتب الباقلاني كتابه وأهل اللسان العربي يومئذ هم الناس، ولم يزل تذوقهم للبيان ما وصفت لك، تذوق ملتبس بالطباع مردود إلى السلائق، مشحوذ بمدارسة الشعر وسماعه وروايته؛ ولكن لم يضر جمهور هذه الطباع شيئًا أن استفاض الجدل وظهر سلطانه، وأن صارت كل فرقة تمضغ كلامًا، تناضل به عن رأيها، وتقطع به حجة خصمها، طلبًا للغلبة لا تمحيصًا للرأي، وفحصًا عن الحق.

ورضي الله عن أبي بكر الباقلاني، فقد جمع في كتابه خيرًا، واستفتح بسليم فطرته أبوابًا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابًا مستورًا. ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة،

وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت إليها .

كان الباقلاني حقيقًا أن ينهج النهج الذي أدانا إليه تمحيص مسألة (الإعجاز) ، ويومئذ يجعل الشعر الجاهلي أصلًا في دراسة بيان عرب الجاهلية ، من ناحية تمثله لخصائص بيان البشر ، والباقلاني -رضي الله عنه- كان يجد في نفسه وجدانًا واضحًا أن خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر ، وقد ألمح إلى ذلك في كتابه ، كما ألمح إليه من سبقه . بيد أن جدل المتكلمين قبله وعلى عهده ، وخوض الملحدين في أصول الدين كما قال ، ومنهجهم في اللجاجة وطلب الغلبة ، كل ذلك لم يدَعْه حتى استغرقه في الرد عليهم ، على مثل منهاجهم من النظر . ثم دارت به الدنيا ، لما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام .

وأنت تستطيع أن تقرأ كتابه فصلًا فصلًا لتجد مصداق ما أقول لك . حتى إذا انتهى إلى الذي هاجه من موازنة القرآن ببعض الأشعار ، هب إلى تسفيه هذه الموازنة ، فدعاك في أوسط كتابه أن تعمد معه إلى ما لا شك في جودته من شعر امرئ القيس ، وما لا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، كما قال في كتابه (ص : ٢٤١) ، فطرح بين يديك هذه القصيدة ، وجعل يفصلها وينقدها ويمحو من محاسنها ويثبت ، ويقف بك على مواضع خللها ، ويفضي بك إلى مكامن ضعفها ، ولم يزل يعريها حتى كشف الغطاء عن عوارها ، ثم ختم ذلك بقوله : «وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها ، تتفاوت في أبياتها تفاوتًا بينًا في الجودة والرداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكن و الاستصعاب ، والتسهل والاسترسال ، والتوحش والاستكراه ، وله شركاء في نظائرها ،

ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها».

فلما انتهى من ذلك افتتح فصلًا نبيلًا، ذكر فيه آيات من القرآن، وحاول أن يقف بك على بدائع نظمها وبيانها، وهذا الفصل هو أدل الدليل على أن الباقلاني، لو كان استقام له المنهج الذي ذكرناه، لبلغ فيه غاية يسبق فيها المتقدم، ويكد فيها جهد المتأخر. ولكنه لم يزد في هذا الفصل على أن جعل يقف بك على بيان شرف الآيات لفظًا ومعنى، ولطيف حكايتها، وتلاؤم رصفها وتشاكل نظامها، وأن نظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى والفضل الأسنى (كتابه ص ٣٠٢، ٣٠٥) وذكر تناسب الآيات في البلاغة والإبداع، وتماثلها في السلاسة والإعراب، وانفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب. أما غيرها من الكلام، فهو يضطرب في مجاريه ويختل تصرفه في معانيه، وهو كثير التلون دائم التغير والتنكر، ويقف بك على بديع مستحسن، ويعقبه بقبيح مستهجن، ويأتيك باللفظة المستنكرة، بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزهر (كتابه ص ٣١٣، ٣١٤). ثم انتهى إلى قوله في القرآن: «وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام، وما له من علو الشأن، لا يطلب مطلبًا إلا انفتح، ولا يسلك قلبًا إلا انشرح، ولا يذهب مذهبًا إلا استنار وأضاء، ولا يضرب مضربًا إلا بلغ فيه السماء، ولا تقع منه على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائدها إلا قصرت، ولا تظهر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا قد أخللت. إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس، لأضل من حمار باهلة، وأحمق من هبنقة» (كتابه ص ٣٢١، ٣٢٢).

وصدق الباقلاني في كل ما قال، إلا أنه لم يزد على أن بيَّن خلو القرآن من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس

من عيب وخلل، وكل ما هو قرين لضعف طبائعهم، وإن استحكمت قواهم، ودالّ على عماهم عن كثير من الحق، وإن استنارت بصائرهم. ولعمري إنه الحق لا ينال منه الباطل، ولكنه غير الذي ينبغي أن نتطلبه من كشف أصول البيان التي يفارق بها بيان القرآن بيان البشر من الوجه الذي فصلناه.

وليس هذا موضع بحثنا الآن، ولكن بحثنا عن الشعر الجاهلي، وما كان من أمره. فهذه الموازنة التي هاجت الباقلاني كما ذكر هو، حملته على هتك الستر عن معلقة امرئ القيس، ليكشف للناس عيبها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانهم، وكيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن، فلما زلّ الباقلاني هذه الزلة وأخطأ الطريق، زلّ به من بعده وأخطئوه، وأخذوا الشعر الجاهلي كله هذا المأخذ، ولكن العجب بعد ذلك أن (الشعر الجاهلي) ظل عند البلغاء وجمهور الناس هو مثقف الألسنة والحجة على اللغة، والشاهد على النحو وما إلى ذلك. ولكنهم إذا جاءوا لذكر القرآن وإعجازه، اتخذوه هدفًا للنقد والتفلية وإظهار العيب وتبيين الخلل، بإزاء كلام بريء من كل عيب وخلل؛ فيبقى الأمر موازنة لا عدل فيها. وكان حسبهم من الدليل أن أهل الجاهلية بتركهم معارضة القرآن بشعرهم أو كلامهم، هو إقرارٌ لا معقب عليه بفضل هذا القرآن على شعرهم وكلامهم، فلم تكن بالباقلاني حاجة إلى سلوك هذا الطريق الذي سلكه، إلا ما حمله عليه ما نعق به جاهل من جهال المتلحدة، من الموازنة بين الكلامين، وتفضيل شعرهم على القرآن.

وكان قد نازع ذلك بابٌ آخر من اللجاجة، في الموازنة بين شعر الجاهلية، وشعر المحدثين من شعراء الإسلام، وظل الجدال في

تفضيل أحدهما على الآخر بابًا تقتحمه الألسنة طلبًا للمغالبة والظهور، وداخل ذلك من الإزراء على الشعر الجاهلي وعيبه ما داخل، فكان هذا أيضًا صارفا عن مدارسته على الوجه الذي تطلبناه في صدر حديثنا. وفي خلال ذلك كله، تجمعت على فهم الشعر الجاهلي أخطاء شديدة الخطر، غَشَّت حقيقته بحجاب كثيف من الغموض، زاده كثافة ما لحق الشعر الجاهلي من التشتيت والضياع، وما أصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير، حتى اختلطت فيه المعاني أحيانًا اختلاطًا، سهّل لكل عائب أن يقول فيه ما عنَّ له. ومع كل ذلك أيضًا بقي الشعر الجاهلي مثقفًا للألسنة، ومعدنًا لشواهد اللغة والنحو والبلاغة.

فليت شعري أي بلاء ترى أصاب هذا الشعر ! !

ثم تتابعت العصور على ذلك وعلى ما هو أشنع منه، حتى أفضينا به في هذا العصر الحديث إلى أقبح الشناعة، يوم فرض الاستعمار الغربي الغازي، على مدارسنا منهجًا من الدراسة لا يقوم على أصلٍ صحيح، كان يرمي في نهايته إلى إضعاف دراسة العربية إضعافا شائنًا، لا مثيل له في كل لغات العالم التي يتلقاها الشباب في معاهد التعليم على اختلاف درجاتها. ثم طمت الشناعة بعد سنين، حين عزلت اللغة العربية كلها عزلًا مقصودًا عن كل علم وفن، وأصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس محدد، هو ثقيل بهذا التحديد المجرم على كل نفس، وخاصة نفوس الشباب الغض. ثم لما أنشئت الجامعة، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيه من الملل بلغتهم، ومن الاستهانة بأمرها، طلع قرن الشيطان بفتنة (الشعر) والتشكيك في صحة روايته، وطار الشر إلى الصحافة، فاتخذت اللغة القديمة كلها لا الشعر الجاهلي وحده، مادة للهزء والسخرية،

وللنكتة والزراية، لا بل تندروا بكل من بقي على شيء من المحافظة على سلامة اللغة، سلامة هي كإبراء الذمة لا أكثر ولا أقل.

هذا تاريخ مختصر للأسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قديمًا، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذي كشفته وبينته، وكان لزامًا عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة إعجاز القرآن، دراسة صحيحة سليمة من الآفات. وهو تاريخ أشد اختصارًا للذي تبع ذلك في العصر الحديث، لما صار (الشعر الجاهلي) ملهاة يتلهى بها كل من ملك لسانًا ينطق، حتى ألقى ذلك كله ظلًا من الكآبة والظلمة على دراسات المحدثين في الجامعة وغير الجامعة، حين يدرس أحدهم هذا الشعرَ. هذا الشعرُ الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ، نورًا يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط. فقد كانوا عبَدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم.

وأنت خليق أن تعرف أن الشيء الذي طلبته واحتججت له، وحاولت أن أكشف عن منهاجه ومذهبه، إنما يتعلق بخصائص البيان في القرآن، وخصائص بيان البشر على اختلاف ألسنتهم، وأن مخرج هذا غير مخرج هذا، وأن الشعر الجاهلي، إنما هو مادة الدراسة الأولى، لأن القرآن نزل بلسان العرب، والذين نزل عليهم ثم تحدّاهم وأعجزهم، هم أصحاب هذا الشعر والمفتونون به وببيانه. وهذا باب غير الباب الذي افتتحه الباقلاني، ثم فجر عيونه إمام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) المتوفى سنة ٤٧٤ هـ في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ثم أبدع فيه العلماء

مــا أبدعوا، وزادوا فيه عليه ونقصوا. وكان ذلك بعد أن أغلق الباب الذي فصلنا القول فيه، وكان هو الجدير بأن يفتتحه الباقلاني وعبد القاهر.

فــإذا تم ما دعونا إليه لأهل هذا اللســان العربي يومًا ما، وعســى أن يكــون ذلك بتوفيق الله، فســيكون ذلك فتحًا مبينًــا لا في تاريخ البلاغــة العربية وحدها، بل في تاريخ بلاغة الجنس الإنســاني كله. وســيكون أيضًا مقنعًا، ورضى لهذا (العقل الحديث) الذي يتطلب فــي معرفة (إعجاز القرآن) ما يرضى عنــه ويطمئن إليه، وليس هذا فحســب، بل إن أهل الحق من أهل الإسلام، سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وســيلة، تسهل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس إلى كتــاب الله الذي خصّ به العرب، وجعل فيه ذكرهم على الدهر حين أنزله بلســانهم، ولكنه جعله هدى للبشر جميعًا عربهم وعجمهم. ويومئذ ســتبطل فتنة (ترجمة القرآن) من أصلها، لسبب ظاهر أشد الظهور. فإن البشــر إذا لم يكن في طاقتهم بألســنتهم التي يبدعون في شعرها ونثرها، أن يأتوا ببيان كبيان القرآن، تدل تلاوته على أنه بيان مفارق لبيان البشر، فمن طول السفه وغلبة الحماقة، أن يدعي أحد أنه يســتطيع أن يترجم القــرآن، فيأتي في الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر. فإذا لم يكن ذلك في طاقة أحد، لم يكن لهذه الترجمة معنى بل سيكون فيها من القصور والتخلف، ما يجعل القرآن كلامًا كسائر الكلام، لا آية فيه ولا حجة على أحد من العالمين، ولا توجب ترجمته على أحد أن يؤمن بما فيه، وإن خالف ما جرى عليه اعتقاده أو علمه، إلا إذا آمن من قبل أنه كتاب منزل من السماء. وهذا عكس لآيــة القرآن، وهي أن بيانه هــو الدليل القاطع على أنه ليس من كلام البشر، وأنه كتاب منزل من السماء، وأنه هو كلام رب العالين الذي

تعبدنا بتلاوته، والذي قال فيه رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران» (صحيح مسلم). وقال أيضًا: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ﴿ألم﴾ حرف، ولكن أقول ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» (سنن الترمذي).

وأما بعد، فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها، فتفتح بالقرآن آذانًا صمًا وعيونًا عميًا وقلوبًا غلفًا، وتخرج بهديه الناس من ضلالتهم، وتذودهم به عن اتباع خطوات الشيطان، إلى اقتفاء الصراط المستقيم، والله تعالى يقول لنبيه:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾

(المؤمنون: ٧٣، ٧٤)

وعسى أن يتم على يد آخرها ما خبأه الله عن أولها، وعسى أن يكون ذلك مخبوءًا في هذا الفصل الذي نجده في أنفسنا بين بيان الله سبحانه، وبيان عباده من البشر.

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

(الأنعام: ١٤٩)

ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» فإذا كان أولها لم يصلح إلا بالبيان، فآخرها كذلك لن يصلح إلا به، وإن امرأ يقتل لغته وبيانها، وآخر يقتل نفسه لمثلان، والثاني أعقل الرجلين!

وشكر الله لأخي مالك بن نبي، وقد دعاني إلى كتابة مقدمة

لكتابـه : (الظاهرة القرآنية) ، ففتح لي به بابًا من القول في (إعجاز القـرآن) كنـت أتهيـب أن ألجه ، وبابًـا آخر من القول في (الشـعر الجاهلـي) كنت أماطل نفسـي دونه ، وأنا أعلم أنـي قد قصرت في ذلـك كلـه واختصرت ، وإن كنت قـد أطلت ، وأخشـى أن أكون قد أمللت ، ولكن عذري أن الرأي فيهما كان قد شـابه ما كدره ، فبذلت جهدي أن أمحص القول فيهما ، حتى أنفي عنهما القذى ، وأخلصهما من الأذى ، مبتغيًا بذلك وسيلة إلى ربي سبحانه ، طلبت القربة عنده ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(النحل : ١١١)

والحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة إلا به ، ولا فضل إلا من عنده .

الأستاذ/ محمود محمد شاكر

قصة هذا الكتاب

الدكتور / عبد الصبور شاهين

لهذا الكتاب قصتان- قصة لمؤلفه، قصة لمترجمه، ولكلتيهما عبرة ومغزى، ما أظن أن كتاب عاش مثلهما، فيما نعرف من قصص الكاتبين والمترجمين.

فأما قصة المؤلف فقد أشار إليها الأستاذ مالك في مطلع مقدمته حين قال: «لم يتح لهذا الكتاب أن يرى النور في صورته الكاملة، فالواقع أننا قد أعدنا تأليف أصوله التي أحرقت في ظروف خاصة».

وسألت مالكا عن حقيقة هذا المطلع، فحكى لي قصة هي من العجب العجاب، ذكر لي أنه كان مسجونا في أحد سجون فرنسا، إبان الحرب العالمية الثانية، حين لاحت له فكرة الكتاب، فاجتمع عزمه على كتابة الفكرة، وكان له من جو السجن أعظم معوان على جمع مراجعه، وتحرير أبوابه وفصوله، حتى استوى كتابا ناضجا، لا ينقصه شيء من التركيز والوضوح، وذكر لي المؤلف رحمه الله أن بعض نزلاء السجن معه قد قرءوا أصول الكتاب فبهرهم منهجه وأقنعهم منطقه، وربما أخبرني بأن بعضهم قد تحول إلى الإسلام بفضل ما أدركوه من عظمة القرآن، وروعة (الظاهرة القرآنية).

وأغلب الظن أن مالكا كان عضوا في مقاومة جزائرية تسعى لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي وقد اعتقل ضمن من اعتقلوا لتأمين الوجود الفرنسي بعد أن احتل هتلر باريس، وسقطت الحكومة الفرنسية التي كانت ضد المحور، ولم يبق من الوطن الفرنسي سوى القوة المهيمنة على الجزائر باعتبارها جزءا من فرنسا كما كان ينص على ذلك الدستور الفرنسي.

كان مالك آنذاك يعيش في باريس بعد أن استكمل دراسته للهندسة الكهربائية، وقد تحول -كما ذكر لي - عن الاشتغال

بالهندســة إلى الاشــتغال بقضايا الفكر وهموم الوطــن، فزج به في السجن، حيث توجه إلى تأليف كتابه (الظاهرة القرآنية) .

وكان مالــك يتوجــس خيفة على أصــول كتابه، فانتهــز فرصة زيارة إحدى الأســر من أصدقائه فطلب من زوج صديقه الزائر أن تأخذ أصول الكتاب، وتحفظها له في بيتها حتى يخرج من السجن، فأخذتها المرأة، وخبأتها في صدرها، وخرجت بها من السجن، وحمد مالك الله على أنه استطاع أن يهرب الكتاب إلى أن يمن الله عليه بالفرج.

وبعــد أن وضعــت الحــرب العالميــة أوزارهــا بهزيمــة النازيــة وانتصار الحلفاء خرج المعتقلون من ســجونهم، وعادوا إلى بيوتهم وأســرهم، وتوجه مالك إلى بيت صديقه الذي اســتأمنه على أصول الكتاب، وكانت تنتظره مفاجأة رهيبة، فقد ذكر له الصديق وزوجه أن الشــرطة جاءت فــي إحدى الليالــي بحثا عن بعــض المطلوبين، وبخاصة لدى بعض الأســر المتعاطفة مع المعتقلين، وخافت المرأة أن تقع يد الشــرطة على شــيء يخص أحد المســجونين (مالك بن نبي) فبادرت بدس الكتاب في محرقة المدفأة، وتحول إلى رماد في لحظات، ونجت الأســرة بذلك من احتمال التنكيل بها، واحترقت أصول كتاب (الظاهرة القرآنية) وكان باكورة اشتغال مالك بقضية الدعــوة إلى الإِســلام، والبرهنة على إعجاز القرآن بأســلوب جديد، وقلت لمالك وقد تهدج صوته وهو يروي هذه القصة :

هل أفزعك خبر احتراق الكتاب؟

قال: وما يغني الفزع ؟ إن الذي يجرب أهوال السجن تهون عنده الأهوال الأخرى.

وقال مالك: وبدأت من فوري أحاول أن أستعيد من ذاكرتي فكرة (الظاهرة القرآنية) وتفاصيلها.

وقلت: هلى ترى أن الكتاب الجديد متطابق مع سلفه؟

وقــال : لا ، فقــد كنت تركــت مراجعي في زنزانتي في الســجن ، ولذلك اكتفيت بما حفظته في الذاكرة من بقايا المراجع ، ونشــرت الكتاب .

هذه هي قصة المؤلف (مالك بن نبي) التي تصور ميلاد كتاب Le phenomene Coranique أو (الظاهرة القرآنية) .

أمــا قصة المترجم فســوف أوجزهــا وأترك للقارئ أن يســتخرج منها ما يجده فيها من دروس وعبر .

ذات يــوم مــن أيام مــارس ١٩٥٧م كنت متوجهــا لمحاضرة في الدراسات العليا بدار العلوم ، وإذا بي أسمع صوتا يناديني التفت فإذا بشاب مغربي أخبرني باسمه : أنا عبد السلام الهراس من المغرب ، ثــم بادرنــي بكلمة لم أتوقعهــا : (بترجم كتاب ؟) لم أكن ســاعتها أفكــر في هــذا العرض ، ولكن هذه العبارة وقعت كالســحاب الثقال علــى أرض ميتة ، وقلت : أي كتاب ؟ فقال : كتاب الظاهرة القرآنية ، ومــددت يدي إليه أتناول نســخة الكتاب ، ووقعــت عيني لأول مرة على العبارة التي صارت مفتاح المســتقبل كله Le phenomene Coranique ، وكانــت هكــذا بدايــة الاتصال بالمرحوم الأســتاذ مالــك بن نبي ، اللاجئ السياســي الجزائري الــذي هرب من مخابئ الشــرطة الفرنسية كي لا تقبض عليه ضمن من حشروا في السجون الفرنسية من الأحرار الجزائريين .

إننــي كلمــا تذكرت هذا الحدث العظيم الــذي أدخلني إلى عالم الترجمة لم يخامرني شك في أن الشاب عبد السلام الهراس -الذي ســاقه القــدر إليّ- لم يكن ســوى حامل رســالة ملائكية هي رســالة الرحمة الإِلهية التي أخرجتني من ظلمة اليأس إلى ساحة الفرج . . .

وقصة الظاهرة القرآنية وحدها دليل على هيمنة الحقيقة الأزلية الأبدية

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾

(الحج : ٣٨)

لقد ظفر كتاب (الظاهرة القرآنية) بشهادة قمتين من قمم القرن العشرين كانت كل منهما شرفا يزهى به مترجم الكتاب.

أما الأولى فقد كان اقتراح طبع ترجمة الكتاب ضمن مشروع الألف كتاب، فتطلب نظام المشروع وجود مراجع للترجمة، ووقع الاختيار على الأستاذ الدكتور / محمد شفيق غربال، المؤرخ الكبير، والذي كان مديرا لمعهد الدراسات العربية خلال الخمسينات، وأحيل الكتاب وترجمته إليه، فكتب تقريرا كله ثناء على الترجمة وصانعها وختم التقرير بأنه يتمنى أن يلتقي هذا المترجم ليمنحه ما يستحق من ثناء. وقد ذهبت إليه رحمه الله في معهد الدراسات العربية، وكنت ما أزال شابا يكتفي بالقميص والسروال(البنطلون) ورآني سكرتيره الخاص فاستهول أن يلقي مثلي (معالي الباشا) وقلت له: إن معاليه هو الذي يرغب في لقائي، وقام ممتعضا ليبلغ الأستاذ، وإذا بشفيق باشا يهب من كرسيه ليلقاني، فلما وضع يده في يدي سألني : أين الأستاذ المترجم؟ وقلت له : أنا هو. فشد على يدي وقد أخذته الدهشة قائلا: كنت أظن أن مترجم هذا الكتاب رجل عجوز، فإذا أنت بهذه الحداثة، وإذا بك متخرج من الجامعة منذ عام – كما تقول– من أين لك هذه القدرة على التعامل مع نص الكتاب وهو ذو أسلوب صعب وذو مستوى عال جدا ؟

وطربت لمقالته، وشرحت له تكويني العلمي والثقافي في العربية والفرنسية، وهنأني الرجل الكريم تهنئة حارة، وودعني على تواضع هيئتي حتى باب المكتب، وهكذا يفعل عظماء الرجال، فقد حالت بعض الظروف دون طبع الكتاب في سلسلة الألف كتاب وآثرنا أن يطبع مستقلا في مجموعة خاصة بمالك بن نبي وأما

الأخرى فقد أراد الله سبحانه أن ينال هذا الكتاب في ترجمته العربية مرتبة الشرف الرفيعة بأن يكتب له العالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر مقدمة فاختار أن يكون موضوع المقدمة بعنوان (فصل في إعجاز القرآن) وكان من حظ المترجم الشاب (كنت شابا عام ١٩٥٨م) أن ينال على يدي الأستاذ درسا رائعا في فنيات الترجمة والثقافة، وكتب الأستاذ شاكر المقدمة التي تعتبر بمثابة كتاب آخر أضيف إلى الأصل المترجم، وهو ما لم يفعله أحد من كتابنا المعاصرين، تكريما لتلميذ من تلاميذه.

وطبع الكتاب وقد استكمل بنيانه وتحقق له ما تميز به من مقومات ترجمة دقيقة وتحقيق منهجي ـ وتعليقات تداركت أخطاء المستشرقين، وفصلت فيه ما جاء مجملا، ومراجعة علمية، ومقدمة ذات مغزى أدبي وتاريخي فهو بذلك فريد في تقديمه لفكرة الإعجاز العلمي للقرآن.

وقد صادف كتاب (الظاهرة القرآنية) نجاحا هائلا بحيث لم يغب عن قراء العربية طيلة الأعوام الخمسة والأربعين التي مضت من عمره المديد.

لقد كان فتحا في عالم الإعجاز القرآني يخاطب العقل الحديث في أوروبا كما يخاطب العقل في دنيا العربية.

ولقد كان كذلك فتحا في حياة مترجمه، ما زال تأثيره متألقا إلى يوم الناس هذا.

لقد كانت لحظة إلهية تلك التي سمعت فيها عبارة (الظاهرة القرآنية) من فم الطالب عبد السلام الهراس الذي أصبح فيما بعد رئيسا لجامعة القرويين بفاس.

وما زلنا كلما التقينا نتذاكر عظمة تلك اللحظة في عمقها وفي بركتها.

أ.د / عبد الصبور شاهين.

مقدمة المؤلف

لـم يُتَح لهذا الكتاب أن يرى النور في صورته الكاملة، فالواقع أننـا قـد أعدنا تأليف أصوله التي أحرقت فـي ظروف خاصة. وهو كمـا هـو الآن، لا يكفي فـي علاج فكرتنـا الأولى عن المشـكلة القرآنيـة؛ فـإن الموضـوع يتطلّـب عملًا شـاقًا طويـل الأنفاس، ومراجـع ذات أهمية قصوى؛ لم يكن بوسـعنا الحصول عليها في محاولتنا الثانية. إننا لا زلنا نشـعر بقيمة الفكرة التي سـاقتنا إلى هـذه الدراسـة حتى لقد آمنـا بضرورة بذل ما نسـتطيع من الجهد في سـبيل تحقيقها مهما تكن صعوبات المشـروع، ومهما تكن المعوقات دون تحقيقه.

ولـذا حاولنا أن نجمع العناصر التي بقيت من الأصل مكتوبة في قصاصات، أو مسـجلة في الذاكرة، فأنقذنا بذلك -على ما نعتقد- جوهـر الموضوع، وهـو الاهتمام بتحقيق منهج تحليلي في دراسـة الظاهرة القرآنية، وهو منهج يحقق من الناحية العلمية هدفًا مزدوجًا هو:

١ - أنـه يتيـح للشـباب المسـلم فرصة التأمـل الناضج في الدين.

٢ - وأنـه يقتـرح إصلاحًـا مناسـبًا للمنهج القديم في تفسـير القرآن. وهـذه المهمة وتلك ترجعان إلى أسـباب مختلفة، يتصل بعضهـا بالتطور الثقافي الـذي حدث في العالم الإسـلامي بصورة عامـة، وبعضهـا يرجع إلى عنصـر آخر، يمكن أن نسـميه (تطور نظرتنا في مشـكلة الإعجاز) بصـورة خاصة، ولا بد إذن من عرض هذه الأسباب بترتيبها:

أولاً: الأسباب التاريخية:

ينبغي أن ندرك أن التطور الثقافي في العالم الإسلامي يمر برحلة خطيرة، إذ تتلقى النهضة الإسلامية أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية، وبخاصة من طريق مصر. هذه الأفكار الفنية لا تقتصر على أشياء الحياة الفكرية الجديدة التي يتعودها الشباب المسلم شيئًا فشيئًا، بل إنها تمس أيضًا وبطريقة غامضة، ما يتصل بالفكر وما يتصل بالنفس؛ وفي كلمة واحدة: ما يتصل بالحياة الروحية.

وإنه لمما يثير العجب أن نرى كثيرًا من الشباب المسلم المثقف يتلقون اليوم عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية، وأحيانا بدوافعهم الروحية نفسها، من خلال كتابات المتخصصين الأوربيين.

إن الدراسات الإسلامية التي تظهر في أوربا بأقلام كبار المستشرقين واقع لا جدال فيه، ولكن هل نتصور المكانة التي يحتلها هذا الواقع في الحركة الفكرية الحديثة في البلاد الإسلامية؟

إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها، وحسبنا دليلًا على ذلك أن يضم مجمع اللغة العربية في مصر بين أعضائه عالمًا فرنسيًا. وربما أمكننا أن ندرك ذلك إذا لاحظنا عدد رسالات الدكتوراه، وطبيعة هذه الرسالات التي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون كل عام إلى جامعة باريس وحدها، وفي هذه الرسالات كلها يصرون - وهم أساتذة الثقافة العربية في الغد وباعثو نهضة الإسلام - يصرون كما أوجبوا على أنفسهم، على ترديد الأفكار التي زكاها أساتذتهم الغربيون.

وعن هذا الطريق أوغل الاستشراق في الحياة العقلية في البلاد الإسلامية، محددًا بذلك اتجاهها التاريخي إلى درجة كبيرة.

تلكم هي الأزمة الخطيرة التي تمر بها ثقافتنا الآن، مثيرة هنا وهناك صدى المناظرات المدوية، كما حدث في مصر بين الدكتور زكي مبارك مع الدكتور طه حسين، حيث عبرت مناظرتهما في أنشودة أدبية حماسية عن المأساة الحديثة للفكر الإسلامي.

ولكن لهذه الأزمة العامة مظهرًا يهم موضوع دراستنا هذه، وأعني به تأثير دراسات المستشرقين على الفكر الديني لدى شبابنا الجامعي، الشباب الذي يتجه إلى المصادر الغربية، حتى فيما يخص معارفه الإسلامية الشخصية، سواء أكان هذا الاتجاه ناشئًا عن افتقار مكتباتنا أم لمجرد التجانس والقرابة العقلية.

لقد نضبت فعلًا المصادر المحلية من كنوزها الثقافية، مولية وجهها شطر المكتبات الأهلية في أوربا، والحق أن مصر قد بذلت جهدًا عظيمًا كيما تضع في متناول الفكر الإسلامي أدوات جديدة للعمل وذلك بما أتيح لها من مطابع حديثة، وعمل جاد اضطلع به شبابها الفتي المتعلم. ولكن هذا الجهد نفسه يعيش في كنف الدهاء الإداري الموروث من عهد الاستعمار.

وأيًا ما كان الأمر، فإنما الشباب المسلم المثقف في بعض ديار الإسلام يرى نفسه مضطرًا إلى أن يلجأ إلى مصادر المؤلفين الأجانب خضوعًا لمقتضيات عقلية جديدة، ولعله يقدر إلى حد كبير منهجها الوضعي الديكارتي، حتى إننا نجد قضاة وشيوخ معممين يتذوقون فيها رشاقتها الهندسية.

وهذا كله لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي، ولكن الهوى السياسي الديني كشف عن نفسه

أحيانًـا بكل أسـف في تآليـف هـؤلاء المتخصصيـن الأوربيينٍ في الدراسات الإسلامية، على الرغم من أنها تدعو إلى الإعجاب حقًا

فلـم يكـن الأب (لامانـس R,P,Lamance) المثـل الفريـد للمستشـرق الطاعـن على الإسـلام ورجاله، والحالـة الوحيدة التي يمكـن أن نلحـظ فيها العمـل الصامـت لتقويض دعائم الإسـلام، فقد كان لهذا الرجل (الشـاطر) على الأقل، فضل في الكشـف عن بغضه الشديد للقرآن، ولمحمد ﷺ، ولا شك أن العمل في ظل هذا التعصب الصاخب خير من تلك الميكيافيلية الصامتة المسـتهجنة التي اتبعها مستشرقون آخرون، متسترين بستار العلم.

ومـن العجيـب أن نذكر مـا تتمتع به هـذه الأفـكار الحمقاء من مجاملة، ولاسيما في مصر عندما تصدرها جامعات الغرب، وأصدق مثال على ذلك بلا جدال، الفرض الذي وضعه المستشرق الإنجليزي (مرجليـوث) عن (الشـعر الجاهلي)، فقد نشـر هـذا الفرض في يوليو / تموز عام ١٩٢٥م في إحدى المجلات الاستشـراقية؛ وفي خلال عام ١٩٢٦م نشـر (طه حسـين) كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي).

فهذا التسلسـل التاريخي معبر تمامًا عـن تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين(١).

وربما لم يكن فرض (مرجليوث) ليحتوي على شيء خاص غير عادي لو أنه حين نشر لم يصادف ذلك الترحيب الحار من المجلات

---

(١) ذكرنـا هنا فرض (مرجليوث) لكي نبرز أمام القـارئ المسلم ضرورة تطبيق منهج تحليلي جديد في تفسير القرآن، ويستطيع القارئ أن يدرك قيمة هذا المنهج القائم على دراسة الظواهر (La Phénoménologie) وعلى التحليل النفسي، وسيدرك أيضا أننا لا نـدرس آراء (مرجليـوث) أو من تتلمذ عليه مثل (طه حسـين). وإنما نريد به دراسة (الظاهرة القرآنية).

المستعربة، ومن بعض الرسالات التي تقدم بها دكاترة عرب محدثون، حتى لقد كسب هذا الفرض قيمة (المقياس الثابت) في دراسة الدكتور (صباغ) عن (المجاز في القرآن)، فقد رفض هذا الدكتور -رفضًا مقصودًا مغرضًا- الاعتراف بالشعر الجاهلي وصفه حقيقة موضوعية في تاريخ الأدب العربي.

فالمشكلة بوضعها الراهن إذن تتجاوز نطاق الأدب والتاريخ، وتهدم مباشرة منهج التفسير القديم كله، ذلك المنهج القائم على الموازنة الأسلوبية معتمدًا على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل.

وعلى أية حال، فقد كان من الممكن أن تثور هذه المشكلة تبعًا للتطور الجديد في الفكر الإسلامي، وإنما بصورة أقل ثورية لأن ضرورات التطور تقضي بتعديل منهج التفسير القديم تعديلاً، يناسب في حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث. ولكن يخيل إلينا أن (مرجليوث) أراد بفرضه أن يفرض على المشكلة تطورًا ثورياً، حين أدخل في الوقت المناسب ما يشبه (الديناميت) الذي قد ينسف كل مناهج التفسير القديم.

لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق كلام البشر، وكان لجوء التفسير إلى الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساسًا عقليًا ضروريا فلو أننا طبقنا نتائج فرض (مرجليوث) كما فعل الدكتور (صباغ) لانهار ذلك الأساس، ومن هنا توضع مشكلة التفسير في صورة خطيرة بالنسبة لعقيدة المسلم، أعني: بالنسبة إلى إعجاز القرآن فينظر هذا المسلم. وربما لم يكن التطور العقلي ليقصر عن دفع شبابنا الجامعي إلى ملاحظة تقادم المقياس القديم إن آجلًا أو عاجلًا، ذلك المقياس

الذي كان يقدم حتى ذلك الحين الدليل القاطع على المصدر الغيبي للقــرآن . أما بالنســبة للعقل ذي الصبغة الديكارتيــة فأية قيمة تبقى لبرهان يبدو منذئذ وقد فقد موضوعيته، وأصبح ذاتيًا محضًا . وهذا الموضــوع لا يتصــل ببيان القــرآن الذي بقي على ما هــو عليه حين نزوله، ولكن بوضع المسلم نفسه .

والحق أنه لا يوجد مســلم وخاصة في البلاد غير العربية، يمكنه أن يــوازن موضوعيًا بين آية قرآنيــة، وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصــر الجاهلي، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغــة العربية، ليمكننا أن نســتنبط مــن موازنة أدبيــة نتيجة عادلة حكيمــة، ومنــذ وقت طويــل أيضًا تكتفــي عقائدنا في هــذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق مع عقول المتعلقين بالموضوعية . فمشــكلة التفســير توضــع إذن في ضوء جديــد، وربما نظر إليهــا المصريون المحدثون في هذا الضوء الجديد .

ولكــن يبدو أن جهود هؤلاء العلمــاء على الرغم من أنها لا تغفل الجانــب الاجتماعــي في علم التفســير لم تحدد منهجهــا الكامل، فالتفســير الكبير الذي ألفه الشــيخ (طنطــاوي جوهري) هو إنتاج علمي أشــبه بدائــرة معارف، ولا ينطــوي على أقل اهتمــام بتحديد منهج، أما تفســير الشيخ (رشــيد رضا) الذي اتبع فيه إمامه الشيخ (محمــد عبــده) فلم يضع هو الآخر هذا المنهــج، فقد كان همه أن يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد . ومع أنه لم يعدّل طريقة التفســير القديم تعديلًا جوهريًا، فإنه قد خلق في الصفوة المسلمة التــي تعشــق التجديد الأدبــي اهتمامًــا بالنقاش الدينــي . ومع ذلك فمشكلة التفســير تظل خطيرة بالنسبة لاعتقاد الفرد الذي شكلته مدرســة ديكارت من جهة، وبالنســبة لمجموع الأفكار الدارجة التي

هي أساس الثقافة الشعبية من جهة أخرى.

ومن المعلوم أن كل مجتمع يحتوي مشكلة أفكار دارجة تحرك الجماهير، كما يحتوي مشكلة أفكار علمية تخص المثقفين، وكما أن هذه تحدد لدى القادة والعلماء حلولاً نظرية لبعض المشكلات، فإن تلك تحدد السلوك العلمي للجماعات إزاء هذه المشكلات التي تصادفهم في الحياة، ففي العالم الإسلامي توجد الآن طبقة مثقفة مقتنعة بحركة الأرض، ولكن هناك جمهورًا كبيرًا من الدراويش، وقل شعبًا من الجهال من كل نوع «يصر على اعتقاده بأن الأرض ساكنة تحملها العناية على قرن ثور». وهذه الفكرة الدارجة قد تؤثر في توجيه التاريخ أكثر من الفكرة العلمية؛ لأنها تستند إلى خرافة مفسر غير موفق يرى الأرض على قرن ثور. ولنأخذ على ذلك مثلاً: (البوصلة ومقياس الزاوية)، فعلى الرغم من أنهما من إنتاج المسلمين الفني، فإن العالم الإسلامي لم يستخدمهما مثلا في اكتشاف أمريكا؛ لأنه كان مشلولا آنذاك عن التقدم العقلي والاجتماعي بأفكار شعبية ميتة. أليست هذه هي المأساة التي أراد الغزالي أن يعبر عنها في بيته المشهور:

غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلًا رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ... لِغَزْلِيَ نَسَّاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

إن مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع. ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي. وبالتالي فإذا كانت الأسباب التي قدمناها تدل على ضرورة هذا التعديل فهناك أسباب أخرى تدل على محتواه، أعني على صورة المنهج الذي يجب أن نسلكه في مشكلة الإعجاز.

ثانيًا: الأسباب العائدة إلى المنهج:

ذكرنا فيما تقدم من هذا المدخل الأسباب التي دعت إلى هذه الدراسة، نظرًا لما حدث في العالم الإسلامي من تطورات اجتماعية وثقافية، تؤثر في موقف المسلم المثقف إزاء الإسلام بصورة عامة. وينبغي الآن أن نذكر الأسباب التي حددت المنهج المتبع في هذه الدراسة، نظرًا إلى إدراك هذا المسلم للقرآن بوصفه كتابًا منزلًا على وجه الخصوص، ولأنه لا يمكن فصل هذه الأسباب عن تاريخ الأديان السماوية بصورة عامة. إننا نجد هذه الصورة في الحديث الذي أورده أخي الأستاذ شاكر في مقدمته حيث يقول الرسول ﷺ: «ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحي إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» (صحيح البخاري)، يجب إذن أن نحدد الإعجاز في القرآن بالنظر إلى مفهوم الإعجاز في الأديان عامة.

وإذن لابد من تحديد هذه الكلمة لغة واصطلاحًا وفي حدود التاريخ؛ لأن عنصر الزمن ذو دخل في هذه القضية إذا ما اعتبرناها من دين إلى آخر، أعني في اتجاه تطورها.

أهل اللغة يرون أن الإعجاز هو الإيقاع في العجز. وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها. فأما حين نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لـ (حجة) الدين، وإدراك المسلم لـ (حجة) الإسلام خاصة، فلابد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الأديان.

وهذا هو الإعجاز من نواحيه الثلاث.

أما الآيات التي تدل عليه في القرآن، بل تلفت النظر إليه متعمدة،

فهي كثيرة مثل قوله عز وجل:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

وقوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(هود: ١٣، ١٤)

وقوله جل شأنه:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٣، ٢٤)

ويجب أن نلاحظ أن هذه الآيات الثلاث لم يسقها القرآن لتنشئ الحجة، وإنما جاءت إعلانًا هنا، وإشهارًا لوجودها في سائر القرآن. كيما تؤتي تأثيرها في العقول المتربصة، وتنتج أثرها في القلوب التي لا زالت في أكنتها.

فإلى أي مدى بلغ هذا التأثير في الوسط الجاهلي؟

إن لكل شعب هواية يصرف إليها مواهبه الخلاقة، طبقًا لعبقريته ومزاجه. فالفراعنة مثلًا كان لهم اهتمام بفنون العمارة والرياضيات، يدلنا عليه ما بقي بين أيدينا من آثارهم العظيمة؛ تلك الآثار التي أثارت اهتمام رجال العلم، مثل الأب (مورو) الذي خصص أحد

كتبه لدراسة تصميم الهرم الأكبر، وما يتضن من نظريات هندسية غريبة، وخصائص رياضية وميكانيكية عجيبة.

كما كان اليونان مغرمين بصور الجمال، على ما أبدعه فن (فيدياس)، وبآيات المنطق والحكمة على ما جادت به عبقرية (سقراط).

أما العرب في الجاهلية، فقد كانت هوايتهم في لغتهم، فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية، شأن الشعوب الأخرى، وإنما كان العربي يفتن في استخدام لغته، فينحت منها صورًا بيانية لا تقل جمالاً عما كان ينحته (فيدياس) في المرمر، وما كانت ترسمه ريشة (ليوناردوفانشي) في لوحاته المعلقة في متاحف العالم الكبرى.

فالشعر العربي كما قال أخي الأستاذ محمود شاكر في مقدمة هذا الكتاب:

« كان حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ نورًا يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط، فقد كانوا عبدة البيان، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم »

هذه صورة الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن، فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح - بصفة عامة في زمن النزول - على هذا السبيل، أي بما ركب في الفطرة العربية من ذوق بياني.

ثم تغيرت هذه الظروف مع تطورات التاريخ الإسلامي، وفاض طوفان العلوم في أواخر عهد بني أمية والعهد العباسي. فصار إدراك جانب الإعجاز في القرآن بالمعنى الذي حددناه - لغة واصطلاحًا من

طريق التذوق العلمي ـ أكثر من أن يكون من طريق الذوق الفطري .

وهذا يعني أن الإعجاز كما أدركته العرب وقت النزول ، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، بيدها وسائل التذوق العلمي .

ومن الممكن أن تتبع هذا التطور في مرحلتيه في مراجع التاريخ الإسلامي :

فمن ذلك أن السيرة تروي لنا بعض المواقف التاريخية ، التي يظهر فيها أثر الإعجاز على الذوق الفطري عند العرب في الجاهلية ، ويظهر ذلك في صورتين : أولهما : إسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما تأثر بآيات سمعها من أخته ، أو قرأها في صحيفتها .

وثانيهما : حكم الوليد بن المغيرة حين يقول في القرآن : « والله لقد سمعت كلامًا ما هو كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . . . » . وهنا نرى الوليد يقف على قيد شبر من الإيمان ، وقد هزه بيان القرآن ، ولكن ما كان للحجة أن تغير أمرًا أراده الله ، فترى الوليد ينتكس ، ويختم كلامه منكرًا صدق الرسالة بقوله : « وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء يفرق بين المرء وأبيه . . إلخ . . » .

وهذا هو صدى الإعجاز في فطرة العرب في صورتين مختلفتين . حتى إذا تقدم الزمن وتغيرت الظروف الاجتماعية ، وتقدمت العلوم ، صار الإعجاز موضوع دراسة قائم بذاته ، فكتب فيه أئمة البيان ، من أمثال الجاحظ في كتابه (نظم القرآن) (وعبد القاهر) صاحب (دلائل الإعجاز) .

ومن هذا الأخير نستعير نبذة لتوضيح المقام والمقال ؛ نستعيرها على سبيل المثال ، من تعليق له على قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(مريم : ٤)

يقــول معلقًا : «إن في الاســتعارة ما لا يمكــن بيانه إلا من طريق العلــم بالنظم، والوقوف على حقيقتــه، ومن دقيق ذلك وخفيه أنك تــرى النــاس إذا ذكروا قولــه تعالــى : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر الاســتعارة، ولـم ينســبوا الشرف إلا إليها، ولم يــروا للمزية موجبًا ســواها. هكــذا ترى الأمر فــي كلامهم، وليس الأمر على ذلك... ».

ولا لــزوم لذكر النــص بأكمله، وإنما أوردته فقط لأبين مباشــرة عجــزي عــن إدراك (الإعجاز) من هــذا الوجه، أي بوســائل التذوق العلمــي، بعــد أن اعترفــت بعجــزي عــن إدراكــه من طريــق الذوق الفطري. وهكذا أراني حيران، فاقد الحيلة والوســيلة في قضية هي أمــس القضايا بالنســبة لي بصفتي مســلمًا. وهنا تواجهنا مشــكلة (الإعجــاز) فــي صورتهــا الجديدة بالنســبة لهــذا المســلم، أعني بالنسبة لأغلبية المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية، بل ربما بالنسبة لــذوي الثقافة التقليدية، فــي ظروفهم الثقافية والنفســية الخاصة، فلابــد إذن من إعادة النظــر في القضية في نطــاق الظروف الجديدة التي يمر بها المســلم اليوم، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح.

وعلــى الرغــم مِمــا يبدو فــي القضية مــن تعقد، بســبب موقفنا التقليدي إزاءها، فإني أعتقد أن مفتاحها موجود في قوله تعالى :

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (الأحقاف : ٩)

فــإذا اعتبرنا هــذه الآية على أنها حجة يقدمهــا القرآن للنبي كي يســتخدمها فــي جداله مع المشــركين، فــلا بد أن نتأمــل محتواها المنطقي من ناحيتين :

فهي تحمل، أولًا، إشارة خفية إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته بوصفه (ظاهرة) بالمعنى الذي يسبغه التحديد العلمي على هذه الكلمة: فالظاهرة هي: «الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها، مع النتائج نفسها».

وهي تحمل في مدلولها، ثانيًا، ربطًا واضحًا بين الرسل والرسالات خلال العصور، وأن الدعوة المحمدية يجري عليها أمام العقل ما يجري على هذه الرسالات. ومن هذا نستخلص أمرين:

١ - أنه يصح أن ندرس الرسالة المحمدية في ضوء ما سبقها من الرسالات.

٢ - كما يصح أن ندرس هذه الرسالات في ضوء رسالة محمد ﷺ، على قاعدة أن: «حكم العامِ ينطبق على الخاص قياسًا، وحكم الخاص ينطبق على العام استنباطًا».

ولا مانع إذن من أن نعيد النظر في معنى (الإِعجاز) في ضوء منطق الآية الكريمة.

وحاصل هذا أننا إذا عددنا الأشياء في حدود الحدث المتكرر، أي في حدود الظاهرة، فالإِعجاز هو:

١ - بالنسبة إلى شخص الرسول: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها.

٢ - وهو بالنسبة إلى الدين: وسيلة من وسائل تبليغه.

وهذان المعنيان للإِعجاز يضفيان على مفهومه صفات معينة:

أولًا: أن الإِعجاز - بوصفه (حجة) لابد أن يكون في مستوى إدراك الجميع، وإلا فاتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، فهو ينكرها عن حسن نية أحيانًا.

ثانيًا : ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين : أن يكون فوق طاقة الجميع .

ثالثًا : ومن حيث الزمن : أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه .

وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين ، الصلة التي تختلف من دين إلى آخر ، باختلاف ضرورات التبليغ كما سنبين ذلك .

فهذا هو المقياس العام الذي نراه ينطبق على معنى الإعجاز ، في كل الظروف المحتملة بالنسبة إلى الأديان المنزلة .

فإذا قسنا به في نطاق رسالة موسى عليه السلام ، مثلًا ، نرى أن الله اختار لهذا الرسول معجزتي اليد والعصا ، وإذا تأملناهما وجدناهما «بوصفهما حجة» يدعم الله بها نبيه - تتصفان بأنهما :

١ - ليستا من مستوى العلم الفرعوني الذي كان من اختصاص أشخاص معدودين ، يكونون هيئة الكهنوت ، بل كانت المعجزة في صورتيهما كلتيهما ، من مستوى السحر الذي يقع أثره في إدراك الجميع عن طريق المعاينة الحسية ، دون إجهاد فكر .

٢ - هاتان المعجزتان تتصلان بتاريخ الدين الموسوي لا بجوهره ؛ إذ ليس لليد أو العصا صلة بمعاني هذا الدين ولا بتشريعه ، فهما على هذا مجرد توابع للدين ، لا من صفاته الملازمة له .

٣ - ودلالة هاتين المعجزتين على صحة الدين محدودة بزمن معين ؛ إذ لا نتصور مفعول اليد والعصا (حجة) إلا في الجيل الذي شاهدهما ، أو الجيل الذي بلغته تلك الشهادة بالتواتر من التابعين وتابع التابعين ، أي أن مفعوله لا يكون إلا في زمن محدد ، لحكمة أرادها الله . ولو فكرنا في هذه الحكمة لوجدنا أنها تتفق مع حقائق نفسية ، وحقائق تاريخية سجلها الواقع فعلًا ، هي :

أولًا : أن القـوم الذيـن يدينون اليوم بدين موسـى – أي اليهود – يفقدون –لأسباب نفسـية لا سبيل لشرحها هنا– نزعة التبليغ ، فلا يشـعرون بضـرورة تبليغ دينهم إلى غيرهم مـن الأمم ، أي : الأميين – كمـا يقولـون – حتى إننـا إذا اسـتخدمنا لغة الاجتمـاع قلنا : إن (الإِعجاز) قد ألغاه في هذا الدين عدم الحاجة إليه .

ثانيًـا : إن مشـيئة الله قـد قدرت أن يأتي عيسـى رسـولًا من بعد موسـى ، وأتى الدين الجديد لينسـخ الدين السـابق ، فينسـخ طبعًا جانب الإِعجاز فيه ، وتزول الحجة بزوال ضرورتها التاريخية .

ثم أتى عيسى بالدين الجديد ، وبما يتطلب هذا الدين من وسائل لتبليغـه ، أي بما يتطلب من حجة ، فأتـى بإِعجازه الخاص ، بالمعنى المحـدد لغـة واصطلاحًـا كما سـبق ، فكان لعيسـى إبـراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإِذن الله . ولسـنا بحاجة أن نكرر بالنسـبة إلى الدين الجديد ما قدمنا من اعتبارات عامة بالنسـبة إلى خصائص (الإِعجاز) في الدين السابق ؛ لأن القضية تتعلق هنا وهناك بالتركيب النفسي الذي عليه الإِنسان ، من جهة أنه إنسان يدرك الأشياء بعقله ، مـع ما في عقله من عجز عن إدراك حقيقة الدين مباشـرة إن لم يكن هنا حجة خاصة ، تسند تلك الحقيقة لدى عقله في صورة (إعجاز) .

فالأسـباب تتكرر ، وإنما يتغير شـكلها نظرًا لما حدث من تطور فـي الظروف النفسـية والاجتماعية حـول الدين الجديـد في البيئة التي ينشـر فيها عيسـى دعوته ، تلك البيئة التي تشع عليها الثقافة اليونانية والرومانية .

وهكذا تأتي رسـالة الرسـول الأمين ، ولكنها تتسم بصفة خاصة تميزها عما سبقها من الرسالات ؛ إذ إنها الحلقة الأخيرة في سلسلة

البعث. ويأتي محمد (خاتم الأنبياء) كما ينوه بذلك القرآن، ويشهد به مرور الزمن منذ أربعة عشر قرنًا.

وما كانت هذه الميزة التاريخية في الدين الجديد، دون أن يكون أثرها في كل خصائصه، وفي نوع إعجازه على وجه الخصوص، فإن حاجة التبليغ ستبقى مستمرة فيه، سواء من الناحية النفسية؛ لأن كل مسلم - بعكس اليهودي - يحمل في نفسه (مركب التبليغ)، أم من الناحية التاريخية لأن الدين الجديد - الإسلام - سيكون دين آخر الزمن، أي الدين الذي لا يعقبه دين سماوي آخر، بل لا يأتي دين بعده بصورة مطلقة كما تشهد بذلك القرون، حتى إن حاجة الإسلام إلى وسائل تبليغه ستبقى ملازمة له، من جيل إلى جيل، ومن جنس إلى جنس، لا يلغيها شيء في التاريخ، وهذا يعني أن هذه الوسائل يجب ألا تكون - مثل الأديان الأخرى - مجرد توابع يتركها الدين في الطريق عبر التاريخ بعد مرحلة التبليغ، مثل اليد عند موسى أو عصاه التي لم يبق لها أثر حتى في متاحف العالم، كما بقيت عصا (توت عنخ آمون) المذهبية.

وعليه يجب أن يكون (إعجاز) القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بذوقه الفطري كعمر رضي الله تعالى عنه أو الوليد، أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل الجاحظ في منهجه الذي رسمه لمن جاء بعده. ولكن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي وإمكانيات عالم اللغة في العصر العباسي، وعلى الرغم من هذا فإن القرآن لم يفقد بذلك جانب (الإعجاز) لأنه ليس من توابعه بل من جوهره؛ وإنما أصبح المسلم مضطرًا إلى أن يتناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من

ناحيـة العبارة، فيطبق في دراسـة مضمونها طرقًـا للتحليل الباطن، كما حاولنا أن نطبقها في هذا الكتاب.

وإذا كانـت هذه الضرورة ملحة بالنسـبة للمسـلم، الذي حاول تعقيد عقيدته على أسـاس إدراك شخصي لقيمة القرآن بوصفه كتابًا منزلًا، فإنها أكثر إلحاحًا بالنسـبة لغير المسلم الذي يتناول القرآن بوصفه موضوع دراسة أو مطالعة.

فهذه في مجملها الأسباب التي دعتنا إلى تطبيق التحليل النفسي خاصة لدراسة القرآن بوصفه ظاهرة.

بيـد أن تنفيـذ هذه المهمة قـد أظهر نقائص جهازنـا الفني دون تواضـع، بل عن معرفة تامة بالقضية التي نعدّ تنفيذها مجرد إرشـاد لما سيتلوها من دراسات، نحتاج للقيام بها أن نحشد وسائلنا الفنية ووثائقنا التي لم نستطع بكل أسف أن نجمعها للقيام بهذه الدراسة.

ومـن المفيد هنا أن نذكر كم سـيكون مفسـر الغـد بحاجة إلى معرفـة لغوية وأثرية واسـعة، فـإن عليه أن يتتبع الترجمـة اليونانية السـبعينية للكتاب المقدس، والترجمة اللاتينيـة الأولى من خلال الوثائق العبرية، وبصورة أعم عليه أن يتتبع جميع الوثائق السريانية والآرامية ليدرس مشكلة الكتب المقدسة.

هذه مهمة جليلة لا يمكننا الشـروع فيها، على الرغم من رغبتنا الحارة في تحقيق هذا الأمل والله يوفقنا.

مالك بن نبي

١/ ١١/ ١٩٦١

الظاهرة الدينية

كلمـا أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسـان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورًا من الفكرة الدينية.

ولقـد أظهر علم الآثـار دائمًا من بين الأطلال التي كشـفت عنها بقايا آثار خصصها الإنسـان القديم لشـعائره الدينية، أيًا كانت تلك الشـعائر. ولقد سـارت هندسـة البناء من كهوف العبـادة في العصر الحجـري، إلـى عهـد المعابد الفخمـة، جنبًا إلى جنب مـع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة. من هنالك كانت تشرق هذه الحضـارات لكي تنير العالم، وتزدهر في جامعاته ومعامله، بل لكي تجلي المناقشـات السياسـية في برلماناته. فقوانيـن الأمم الحديثة لاهوتية في أساسـها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني فإنه ديني في جوهره، ولا سيما في فرنسا فقد اشتق من الشريعة الإسلامية[٢].

وعوائـد الشـعوب وتقاليدهـا تتشـكل بصـورة يمليهـا اهتمام ميتافيزيقي يدفع أقل القرى الهمجية، التي تشـيد كوخًا بسيطًا في مركزها، تتجه نحوه الحياة الروحية القبلية، وهي حياة تتفاوت في بدائيتها إلى حد كبير. وما التوتمية والأساطير واللاهوت إلا حلول مقترحة للمشكلة نفسـها التي تساور الضمير الإنساني كلما وجد

(٢) في أثنـاء حملة نابليون على مصر تعرف علـى الشريعة الإسلامية، وهذا القول لا يحتاج إلى دليل، وهو ليس سوى تفصيل على هامش الفكرة التي نتفق فيها بصفة عامة مع علمـاء الاجتماع، ومع مؤرخي القانون. والقانون الرومـاني نفسه لا يشذ عن هذه القاعدة كما بينه الدكتور صوفي أبو طالب في كتابه (النظم الاجتماعية والقانونية (ص: ١٢٨ وما بعدها) أما فيما يخص ملاحظتنا على قانون نابليون فإنا نحيل القارئ على كتاب (كريستيان شرفيس Christian Cherfils) الذي كتبه بعنوان: (نابليون والإسلام).

نفسه مأخوذًا بلغز الأشياء وغاياتها النهائية.

ومن جميع الضمائر ينطلق السؤال نفسه الذي يصوره في خشوع هذا المقطع من أغنية (الفيدا) الهندوسية:

«من يعرف هذه الأشياء؟.. ومن يستطيع الحديث عنها؟»

«من أين تأتي هذه الكائنات؟. وما حقيقة هذا الإبداع؟»

«هل (هو) قد خلق الآلهة... ولكن من يعرف كيف وجد الخلق[٣]».

هل الذي يفصح عن نفسه هكذا ضمير يؤمن بتعدد الآلهة؟

ولماذا يلمح الضمير فيما وراء هياكل آلهته وجود من خلقها؟

وتردُّد المشكلة الغيبية -هكذا وبانتظام- على الضمير الإنساني في جميع مراحل تطوره، هو في حد ذاته مشكلة أراد علم الاجتماع حلها حين وصف الإنسان بأنه في أصله (حيوان ديني).

ومن هذا التعريف الموضوعي تنبع نتيجتان نظريتان مختلفتان:

١ - هل الإنسان (حيوان ديني) بشكل فطري غريزي، وبسبب استعداد أصيل في طبيعته؟

٢ - أو أنه اكتسب هذه الصفة إثر عارض ثقافي مفاجئ لدى مجموعة بشرية معينة؟ شمل مفعوله الإنسانية كلها، بنوع من الامتصاص النفسي؟

فهناك إذن نظريتان رئيسيتان متضادتان بصدد المشكلة التي تعرضها علينا الظاهرة الدينية.

وسيكون من السذاجة طبعًا أن نزيل هذا التعارض الفلسفي بحل رياضي، كما أراد ذلك بعض مفكرينا المغرمين بالطريقة العلمية. ربما لأنهم تناسوا المبادئ الأولية للعلم الوضعي نفسه. ومع ذلك يجب ألا ننسى أن هندسة إقليدس ذاتها الموغلة في الدقة العلمية

---

(٣) من تقديم شعري للشاعر طاغور.

لا تعتمـد إلا على فـرض، لا على برهان رياضـي. وإن الأمر لكذلك بالنسبة إلى جميع النظريات الهندسية التي نشأت بعد إقليدس.

وأيًـا ما كان الأمر، فـإن ما يطلب من أي مذهـب -حين يضع مبدأه الأساسي- أن يكون دقيقًا متوافقًا مع نفسه، متواثقًا في جميع نتائجه.

وهـذه هي الطريقة العلمية الوحيـدة للحكم على القيمة العقلية لأي مذهب في ذاته، وعلى قيمته بالنسبة لأي مذهب آخر.

وليس التناقض في المسألتين اللتين قررناهما بوصفهما نتيجتين للظواهـر الدينيـة، قائمًـا بيـن الدين والعلـم على غرار مـا يوحي به بعضهـم، إذ إن العلم لم يبرهن على عـدم وجود الله أو وجوده - كما نسلم بذلك مبدئيًا - بل النزاع هنا بين دينين، بين الألوهية والمادية، بين الدين الذي يسلم بوجود الله! وذلك الذي (افترض) المادة!!

والهـدف مـن هـذا الفصـل هـو الموازنة بيـن هذيـن المذهبين الفلسـفيين: ذلك الذي يعد الضمير الديني للإنسـان ظاهرة أصلية في طبيعته، ظاهرة معترفًا بها بوصفها عاملا أساسيًا في كل حضارة، والآخر الذي يعد الدين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية، ومع ذلـك فإن نتائـج هذا الفصل سـتعتمد على نتائج الفصـول التالية، التي سـتقدم نوعًا من البرهان اللاحق المدعم بما يسـمى (الظاهرة النبوية) و (الظاهرة القرآنية) التي تضع الدين في سـجل الأحداث الكونية بجانب القوانين الطبيعية.

وعلـى ذلك فإن موازنة مذهبين، أحدهما مادي في جوهره، يرى أن كل شـيء متوقف على المـادة، والثاني غيبي (ميتافيزيقي) يعد المـادة فـي ذاتها محـددة محكومة، هـذه الموازنة لا تكـون قاطعة مقنعة إلا إذا اعتبرنا عناصرهما المتجانسة المتقابلة التي تكمن في فكرتهما عن الكون، والتكوين.

وبناء على هذه النظرة يجب أن نبدأ في دراسـة موازنة للمذهبين المذكورين.

المذهب المادي

من حيث المبدأ : المادة هي العلة الأولى لذاتها ، وهي أيضًا نقطة البدء في ظواهر الطبيعة ؛ وبديهي أنه لا يحق لنا أن نعد المادة شيئًا عرضيًا (حادثًا) إذ إنها حينئذ ستكون منبثقة عن بعض الأشياء ، أي عن سبب خالق مستقل ، وهذا يتنافى مع الفرض . وإذن بكل بساطة : هي موجودة ، وهي أيضًا غير مخلوقة . وهكذا نتفق على أصل المادة مبدئيًا ، ونهتم فقط بتطورها [٤] في حالاتها المتعاقبة بادئين من نقطة التسليم هذه . فيمكن القول : بأن الخاصة الوحيدة للمادة في مبدأ الأمر هي أنها كانت (كمًا معينًا) أو كتلة .

وبناء عليه يجب أن نعد جميع الخواص الأخرى نتائج لهذه (الخاصة الوحيدة) ، ولها وحدها .

ويجب على الأخص أن نعد هذه المادة من حيث الأصل في حالة بساطة وتجانس تام ؛ لأن كل تنوع في ذاتها يستتبع تدخل عوامل متنوعة بالضرورة ، مما يتنافى مع المؤثر الوحيد ، وهو خاصة (الكم) . هذا الشرط يستتبع حالة مبدئية لا يمكننا فيها أن نتصور المادة منظمة بأية طريقة ، وإلا فإن التركيب الذري – الذي اكتشف العلم تنظيمه وتركيبه – يوحي بتدخل جزيئات نووية متنوعة منذ البدء ، مما يتنافى أيضا مع شرط البساطة والتجانس التام . وبالتالي

---

(٤) على الرغم من أن ملاحظاتنا عن تطور المادة المحتمل مفيدة من الناحية المنهجية، في عرض يتصل بالمقارنة بين مذهبين متعارضين، يقوم كلاهما على أساس مناف للآخر: (الله أو المادة)، فهي ليست بلازمة لاستخلاص الفكرة الجوهرية في هذا الفصل. ويكفي القارئ الذي لم يتمرس بمسائل العلوم، أن يتابع العرض ابتداء من العهد الحيوي (البيولوجي) في تطور المادة. أي من التطور الذي صورناه في حدود المعادلة:
مؤثرات حرارية ديناميكية + عوامل كيميائية = مادة حية.

فـإن المـادة بالضرورة مـن حيث أصلهـا في حالة تحلـل كلي وهي – كهربيًـا – متعادلـة، أي لا توصف بأنها سـالبة أو موجبة. فهي – مثلاً (كمية) من (النترونات) لا توجد بينها في ذاتها سـوى علاقة تجاذب، فتنظيمها الذري في المسـتقبل سـيكون مرحلة لتطورها، وتطورهـا هو الذي يؤدي إلى إظهار الجزيئات النووية: (البوزيترون Positrons)، و(الميزوتـرون Mesotrons)، و(الإلكتـرون Electrons).. إلخ.. والقوى الكهربية الإستاتيكية المقابلة.

ومن غيرٍ أن نتسـرع فـي الحكم على هذا التنـوع الجزيئي، فإن هناك سـؤالاً يفرض نفسـه عـن إمكان تكويـن الـذرة الأولى، وهو تكويـن يمكـن إدراكه بصعوبـة، وهو أيضًـا غريبًا في نظـر قانون (كولب Coulomb) الذي يحكم الظاهرة ضرورة.

وفي الحق إنه لمن الصعب أن نتصور كيف تكونت النواة الأولى من أجزاء من النوع نفسـه، وتسـمى بالاسـم نفسـه، وتتنافر بفعل قانون الكهرباء الإستاتيكية الأساسي.

ومع ذلك فإننا سنسلم بإمكان ذلك، ولكن هل تبدأ دورة الاندماج بين الجزيئات بالنسبة للنواة الأولى في وقت واحد للعناصر الاثنين والتسـعين [٥] التـي رتبها (ماندليف)؟ أم أن ذلـك يحدث بالتتابع مـن عنصر لآخر؟ فإن كان هناك ما يسـمى (بالاقتران الزمني) فإن عنصـرًا واحـدًا فقـط يمكن أن يوجـد طبيعيًا بواسـطة تدخل مؤثر واحـد، أي حالة المادة في بسـاطتها وخلوها مـن التكهرب. ولكن ستبقى إحدى وتسعون حالة شاذة عن القاعدة، لا يمكن أن يوجدها المؤثر نفس في الوقت نفسه.

---

(٥) بلـغ عدد العناصر المكتشفة عنصرين ومئة عنصر (١٠٢)، وقد اشترك في اكتشاف العنصر الأخير العالم البريطاني الدكتور (ميلدتسبد). (المترجم)

وعلى العكس من ذلك إذا كان هناك تتابع في خلق المادة لعناصر الطبيعة، فمن الواجب تفسير تكون هذه العناصر على أنه مجموعة مـن واحد وتسـعين تحـولًا عنصريًا، ابتداء من عنصـر واحد أولي، وليكن (الأيدروجين).

وهنا يمكن أن تحتل الظاهرة مكانها سـواء أكان ذلك بواسـطة سلسلة وحيدة:

بحيـث تخلق المادة الأولـى العنصر الأول، ثـم تتوالد العناصر الباقية منه في سلسلة واحدة، أم كان بسلاسل متعددة: تخلق المادة الأولـى العنصر الأول (الأيدروجين)، ومن هذا العنصر الأول تتولد عائلة من الأجسام البسيطة ولتكن أربعة مثلًا، يتسلسل من كل منها مجموعة من العناصر الباقية والكل ناتج، عن عنصر أولي.

ففـي الحالة الأولى: تتطلب السلسـلة الوحيدة واحدًا وتسـعين تحولًا عنصريًا محددًا؛ إنَّ كل عنصر يتشـكل في الوقت الذي تبقى فيه العناصر التي سـبقته، وهي على ذلك تتعرض لإحدى وتسـعين حالة من التعادل الطبيعي الكيماوي المختلف، الذي يتضمن تدخل عامل مختلف أيضًا عن قانون الاندماج الأولي. ولكننا افترضنا أصلًا أن هذا القانون وحيد، وأنه مسـتقل عن الزمان وعن سـائر العوامل الحرارية الديناميكية. فلدينا إذن سلسـلة مكونة من واحد وتسعين تحـولًا عنصريًـا تتولد مـن العنصر الأول، وهذه السلسـلة لم تحظ بتفسير طبقًا لقانون واحد.

وعلى هذا ففي كلتا الحالتين لا يجد جدول (مانديليف) تفسيرًا كافيًـا فـي نظر المبدأ الذي نسـلم به، وهذا يثبـت ضعف المذهب المـادي ثم يزيـد هذا الضعف وضوحاً – في نظرنـا – إذا نحن تتبعنا تطور المادة في الحالة الثانية، فهي بعد أن أصبحت في حالة منظمة

غيـر عضوية ، سـتصل إلى تحول عنصري حيوي ، وسـتصبح كمية منها مادةً عضويةً حية هي (البروتوبلازم) .

وعندما تتطـور هذه المادة بدورها خلال سلسـلة حيوانية معينة تصبـح بنـاء على تحول عنصـري جديد مادة مفكرة ، هي الإنسـان فعندنا معادلة [٦] معينة هي :

مؤثرات حرارية ديناميكية + عوامل كيميائية = مادة حية الإنسان .

وهذه المعادلة صحيحة طوال العهد الجيولوجي المطابق للعوامل أو المؤثـرات الحراريـة الديناميكية التي تبدو فـي الجزء الأول من معادلتنـا (مؤثـرات حراريـة ديناميكية + عوامـل كيميائية) ، فإذا نحن سـلّمنا جدلاً بمدة هذا العهـد ، وكذلك بمدة الدورة الحيوانية التي تنتقل بالمادة الحية من حالة عدم التشكل (للبروتوبلازم) إلى الحالة المنتظمة المفكرة للإنسـان ، فإن هنـاك بالضرورة عددًا من الأجيال مطابقًا للنسبة بين هاتين الفترتين ، وعليه فإن الجيل الأول يكون قد سـبق بالنسـبة لما أعقبه بمدة طويلة معادلة لطول العصر الجيولوجي الذي تصح فيه شروط المعادلة .

وفي نهاية ذلك السباق يكون الجيل الأول قد وعى حقيقة دنياه ، والظواهر التي مرت عليه .

وينبغـي خصوصًا أن يكون الجيل السـابق قد سـجل في ذاكرته ظاهرة الأجيال التي تليه ، ولكن الجيل الإنسـاني الحالي لم يسجل فـي مفكرته حدثًا كهذا ، ولا نجد لديه إلا أثرًا يتعلق بالجيل الآدمي الحاضر . فمن الضروري إذن أن نقر أن المعادلة البيولوجية المشـار

---

(٦) هــذه المعادلة يفرضها المبدأ الذي سلمنا به في هذا الفصل وهو: «أن المادة تخلق نفسها» فهــي صحيحة محتمة علميًا على حين تناقض بعض نتائجها كما هو ظاهر من التحليل التالي.

إليهــا لم تحدث ســوى مــرة واحدة، ومــن أجل جيل وحيــد فريد؛ وبعبارة أخرى: هنالك حتمية بيولوجية لا تســتطيع العوامل المادية وحدهــا أن تبرهن عليها، وهذا يلفت انتباهنا إلى نقص في المذهب المــادي، وهــو نقص يثبــت ضعف مبدئه الأساســي، وســيزيد هذا النقــص فــي نظرنا إذا مــا اعتبرنــا أن المعادلة المذكــورة لا تعطينا تفســيرًا لظاهرة التوالد الحيواني. وهناك في الواقع مشكلة جديدة تخص وحدة النوع التي لا يمكن أن ترى في الفرد، وإنما في الزوج: الذكر والأنثى؛ ولذلك فإن النظرية المادية لا تقدم أي تســويغ لهذا الازدواج الذي يعد شرطًا لوظيفة التوالد الحيوانية.

فــإذا كان هناك حــدث (بيولوجي) عرضي فيمــا يخص الرجل، فإن المشكلة تظل تواجهنا على الرغم من ذلك فيما يتعلق بالمرأة، إلا إذا قررنــا حدثــا مزدوجًــا في الأصل، نتــج عنه الــزوج المتوالد الضروري لتناســل النوع الإنســاني، وإذا نحن قررنا على الرغم من كل شــيء هذا الحدث المزدوج للمــادة، يكون من الصعب أن نقرر أن نتيجتــه كانت متســقة تمامًا مــع هدف وظيفة التناســل الواحدة المشتركة بين الذكر والأنثى.

وعلى كل فإن حتمية المادة يمكن أن تصح إذا كانت تتحقق في صــورة خنوثة زوجية لنوعين متماثلين مســتقلين: نوع الرجل ونوع المرأة، وبهذا يوجد أيضًا بقية نقص تثير عدم التوافق في المبدأ.

ومــن وجهــة النظر الآلية: مــن الثابــت أن المادة تخضــع لمبدأ (القصور الذاتي) خضوعًا تامًا، فالمادة الحية على هذا تعد استثناء مــن القاعدة: فــإن الحيوان مزود بميزة تعديل وضعه بنفســه، وهنا يظهر أيضًا ضعف المذهب المادي.

وهناك ظواهر أخرى لا تقل عن السابقة في إثارة الاهتمام بغرائب

المذهب المادي، ومن ذلك ظهور بقع في بشرة الزنوج، فهل يمكن أن يعزى هذا إلى تأقلم عضوي في بيئات يؤثر عامل الشمس فيها تأثيرًا كبيرًا؟ ومع ذلك ففي المستوى نفسه نجد البشرة البيضاء والصفراء أو النحاسية، فهل يمكن أن يعزى هذا إلى الغابة العذراء؟ وفي هذه الحالة يجب أن تتلون بشرة الإنسان في البرازيل مثلًا.

وأخيرًا ففي علم الفلك نصادف أيضًا غرائب غامضة في نطاق المذهب المادي، فقد كشف تحليل ألوان الطيف عام ١٩٣٩م لعالم الطبيعة (هابل) اتجاه حركة النجوم السديمية الخارجية عن سمائنا بالنسبة لعالمنا، فإن هذه السديميات تبتعد عن كوكبنا، فيما عدا ستًا تقترب منه على عكس سالفاتها.

وهكذا تحتمل المادة في مجموعها -بالنسبة لنا- تفسيرين متعارضين، فإذا وضح أحدهما في ضوء قانون أساسي معين، فإن معنى الآخر يظل معلقًا، وكل هذا الشذوذ الذي يتنافى مع الحتمية المادية المحضة -أساسًا- يحتم إعادة النظر في بناء المذهب كله، فإن المبدأ الأساسي نفسه يبدو عاجزًا عن تزويدنا بنظرية متسقة عن الخلق وعن تطور المادة.

المذهب الغيبي

من الضـــروري هنا أن نفرض مبدأ متميزًا عــن المادة، فالله خالق ومدبــر للكون، وســبب أول ينبثق عنه كل موجــود، وهذا هو مبدأ المذهــب الجديد. وســيتولى هــذا المبدأ بيــان أصل المــادة، وقد وجدناه غامضًا موغلًا في الإبهام في المذهب الســابق: فهي مخلوقة بواسطة حتمية مستقلة عن جميع خواصها.

وهــذه الحتميــة الغيبيــة (الميتافيزيقيــة) تسـعفنا حين تعجز القوانيــن الطبيعية عن إعطاء تفســير واضح للظواهر. وبذلك ينتج عنها مذهب كامل متســق متجانس لا نقص فيه ولا تعارض، مما لزم المذهب المادي.

وفي الوقت الذي يعبر فيه المذهب الغيبي عن المطالب الفلسفية للعقل، الذي يرمي إلى ربط الأشياء والظواهر ربطا منطقيًا في تأليف متســق، نجده ينصب علاوة على ذلك جســرًا يتجاوز حدود المادة إلى مثال أعلى للكمال الروحي، إلى الهدف الأساسي الذي لم تكف الحضــارة عن الاتجاه نحوه، فخلــق المادة هنا ينتج من الأمر القاهر لإرادة عليا، تقول لكل شيء حسب كلمة سفر التكوين: (كن).

وتطــور هذه المــادة ســيكون طبقًا لأوامــر إرادة، تــوزع التوازن والاتساق اللذين قد يلاحظ على البشر قوانينهما الثابتة.

ولكــن بعــض مراحل هــذا التطــور ســتخفى علــى الملاحظات المألوفــة لرجــال العلم، دون أن ينطوي المذهــب من أجل هذا على نقص ما، ففي هذه الحالات الاســتثنائية نســتعين بالحتمية الغيبية التي لا تعارض بينها وبين طبيعة المبدأ.

فحيثمــا يوجــد نقص في المذهب الســابق، يوجد تدخل ســبب خاص خالق، عالم بخلقه، ومريد.

ولقد نجهل مؤقتًا القانون الذي يسيطر على ظاهرة ما زالت تخفى علينا طريقة حدوثها، ومع ذلك فإن المذهب يظل منسجمًا منطقيًا مع مبدئه الأساسي، لأن مثل هذه الظاهرة يمكن تسويغها في التحليل النهائي بناء على حتمية مطلقة، فإرادة الله هي التي تتدخل هنا، بينما كانت المصادفة هي التي تتدخل هناك، تلك المصادفة التي تُعَدّ الإله القادر على كل شيء في المذهب المادي.

ولا يغيبن عن نظرنا أن الأمر لا يتعلق هنا -كما سبقت الملاحظة- بالموازنة بين نوعين من العلم، بل بين عقيدتين: عقيدة تؤله المادة، وأخرى ترجع كل شيء إلى الله تعالى.

وليس من نافلة القول أن نقرر أن عالمًا كبيرًا يستطيع أن يكون مؤمنًا كبيرًا، على حين أن مسكينًا جاهلًا يمكنه أن يكون جاحدًا كبيرًا أيضًا؛ والأمر هكذا غالبًا. وعندما نصادف حالة عجيبة لعالم يقول إن القرد جد للإنسان، فيجب أن نفكر أيضًا في ذلك الوثني المتواضع على شاطئ نيجيريا، الذي يعتقد تمامًا أنه قد انحدر من جَدٍ تمساح، فليس لدى كل من هذين الرجلين، العالم والبدائي، سوى فكرة غيبية يعبر عنها كل منهما بطريقته.

إن عصور الاضطرابات الاجتماعية، والاختلال الروحي هي وحدها التي تخلق الصراع بين الدين والعلم.

ولكن كلما تواردت أحداث التاريخ، في روسيا مثلًا إبان الحرب الأخيرة، وفي فرنسا عقب ثورة ١٧٨٩م، وجدنا أن آلهة العلم قد انهارت على نحو يدعو إلى الرثاء، لتفسح مجالًا للعلم وحده، ذلك الخادم المتواضع للتقدم الإنساني، ومع ذلك فمنذ الاستكشافات الأخيرة لعلم الفلك فطن العلم إلى نطاقه المنتهي المحدود؛ وفيما وراء السديميات السحيقة في البعد، وراء ملايين السنين الضوئية،

وربمــا ملياراتها، تمتــد الهاوية التي لا قرار لها إلــى اللانهائية التي يســتحيل الوصول إليها، أو حتى إدراكها بالنسبة للفكر العلمي، إذ لا يجد هذا التفكير موضوعه الخاص وهو: الكم والعلاقة والحالة.

فأي كم؟ وأية علاقة؟ وأية حالة؟

كل هذه الأسئلة لا معنى لها خارج حدود المادة، والعلم نفسه لا معنى له وراء الســديميات الأخيرة التي تقف على الحدود بين عالم الظواهر، واللانهائية اللامادية.

وراء هــذه الحــدود يســتطيع الفكر الديني وحده أن يقول شــيئًا واضحًا بينًا: (الله يعلم).

الحركة النبويّة

إن الدراسة الموجزة، لا تؤدي إلى فهم الظاهرة الدينية المعقدة، لأن لها مظاهر متنوعة ومتعددة في مختلف البيئات الإنسانية، ولقد قامت نظريات غريبة عن طبيعة هذه الظاهرة وتاريخها. فالمؤلفون المعاصرون يحاولون شرحها في ضوء تفسير تاريخي مجرد، تبعًا لمنهج (ديكارت) الذي يرجع كل شيء إلى معيار أرضي.

كذلك قرر (شوريه) Shurré مؤلف كتاب (كبار الواصلين) Grands Initiés أن الفكرة الدينية ظلت سرًا تحفظه صدور بعض أولئك الواصلين، يكشفه بعضهم لبعض، من جيل إلى جيل، بواسطة انكشاف باطني، تضل ذكراه مع ما يحتوي من سرية في أعماق التاريخ.

هذه الفكرة البسيطة تزيد في تعقيد موضوع سبق أن قررنا أنه معقد، وهم يدَّعون مع ذلك أنهم إنما أرادوا توضيح أركانه بهذا الفرض الخاطئ المضحك؛ وهو الفرض الذي يزعم حدوث انكشاف دوري للسر الديني، بواسطة جمعية سرية غامضة يرأسها بعض (اللامات) في أحد جبال التبت البعيدة!!

ولم يعبأ (شوريه) في نظريته هذه بالتفسير التاريخي للسلسلة التي تربط مثلًا حدثين مختلفين تمامًا، كالبوذية والإسلام، ولم يعبأ أيضًا بأن يعرض علينا في هذه الحالة القاسم المشترك الذي كان من المفروض أن يعكسه ضمير (بوذا) من ناحية، وضمير بدوي كمحمد ﷺ من ناحية أخرى.

وإنه ليبدو حقًا أن تعقيد الظاهرة الدينية قد أضل الأفكار الديكارتية، وأننا ما زلنا -بلا شك- مزعزعين أمام المشكلة التي تشتمل على ربط أحداث متباينة، كمذهب وحدة الوجود والشرك

والوحدانية في نطاق واحد.

ولقد لاحظنا في الفصل السـابق ضرورة وضع فرض هو التسليم بوجود (الله)، وسنبحث هنا واقعًا خاصًا هو (التوحيد) الذي قدم لنا برهانه الأسمى على ألسنة الأنبياء، وبذلك أصبح فيصلا في مجموع الظاهرة الدينية.

والواقع أن تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائمًا من الناحية الاعتقادية فحصًا يقوم على أساس النقد، ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصحبها.

ومنذ إبراهيم -عليه السلام- تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم، جاءوا يخاطبون الناس باسم (حقيقة مطلقة) يقولون إنهم يعرفونها معرفة شخصية، وخاصة، بوسيلة سرية هي الوحي.

ويقول هؤلاء الرجال إنهم مرسلون من (الله) ليبلغوا كلمته إلى البشر، هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسمعوها مباشرة.

وخصوصية هذا الوحي ومضمونه، هما الأمارتان المميزتان المثبتتان لرسالة النبي. هذا إلى أنها هي السمة المميزة للنبوة، وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي.

مبدأ النبوة

إن مبدأ النبوة يعرض نفسه بفضل شاهده الوحيد -النبي- بوصفه ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه.

والمشكلة على وجه التحديد هي معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بأشياء ذاتية محضة، أو بظاهرة موضوعية كالمغناطيسية مثلاً. إن وجود المغناطيسية ينكشف لنا بواسطة الإبرة الممغنطة التي تجسم لنا كمًا وكيفًا الحقائق النوعية؛ لكننا لا نستطيع ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي، وفي محتويات رسالته المتواترة المنزلة، فالأمر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية وتاريخية من ناحية أخرى، ولنا أن نلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن بعث نبي ما ليس حدثًا فردًا، بحيث يكون غريبًا نادرًا، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ، منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ. واستمرار ظاهرة تتكرر[7] بالكيفية نفسها، يعدّ شاهدًا علميًا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها؛ بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل، ومع طبيعة المبدأ.

ومن المعلوم بناءً على وجهة نظر (هيجل) - التي تعتمد على ملاحظة الظواهر- أننا إذا وجدنا حالة نبوية خاصة لا تفسر شيئًا ولا تثبته، فإنَّ تكررها في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية، ويبقى علينا أن نبحث في ماهية هذا التكرار، لكي نستخلص من صفاته الخاصة القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها. فليس هناك من سبب وجيه لكي نسلم مقدمًا بالنبوة بالمعادلة الشخصية[8] للنبي، وهو

---

(٧) يتصل بهذا المعنى الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٩)

(٨) المعادلة الشخصية هي مجموعة من الطاقات والإمكانيات الشخصية تكون (الأنا). (المترجم)

يقــرر أن الأمر يتعلق أو يمكن أن يتعلق بالأعصاب الثائرة، والخيال الشاطح، والفكر الذي أزاغته ظواهر ذاتية محضة.

إن حيــاة الأنبيــاء وتاريخهــم يمنعاننــا مــن أن نعدهــم مؤمنيــن مندفعين دون تعقل وبكل بســاطة، إلى الخوارق والمعجزات، أو أن نحكم بأنهم معتوهون بأصــل خلقتهم، اختلت عقولهم وبصائرهم بنقائــص مزمنة؛ فهم يمثلون - على العكس- الإنسـانَ في أســمى حــالات كماله البدنــي والخلقي والعقلي، وشــهاداتهم الاجتماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها. وإذن فمن الواجب في المقام الأول أن نلجأ إلى هذه الشــهادة لكي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نُخضِعُها لنقدنــا، ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له.

ولذا فســنحاول أن نبحث حالة النبي (أرمياء) الذي اخترناه من أجل الضمانات التاريخية، التي تخوّل كتابه وتاريخه الشخصي قيمة الحقيقة الموضوعية، والواقع أن البروفيسور (مونتيه، Montet) قــد توصَّل في دراســته للوثائق الدينية إلى تجريــد الكتاب المقدس مــن كل صفات الصحــة التاريخية، فيمــا عدا كتــاب (أرمياء)[٩]، ومع ذلك فنحن نريد أن نتحاشــى مســاوئ النقــد الحديث للكتاب المقــدس، الذي يبدو لنــا أنه قد أخطأ في فهم طبيعة الموضوع بهذا التعميم المفرط للشــك الديكارتي، والذي يؤدي غالبًا إلى تفســير متعسف للحقائق النفسية التي هي الأساس في هذا الموضوع.

---

(٩) تضــم الحركة النبوية الإسرائيلية سبعة عشر نبيــا منهم أربعة أكابر هم: أشعياء وأرميــاء وحزقيال ودانيال، وقد قيل لهم ذلك لأنهــم ذوو أسفار أكبر من أسفار غيرهم. وقــد وزعت نبوتهم على أربعة قرون بعثوا خلالها في أعقاب بعض (٨٣٠ - ٤٣٥ ق.م) وأولهم (يونس ويوئيل) (٨٣٠ ق.م). وآخرهم (ملاخي) (٤٣٥ ق.م). ثم جاء بعده (يوحنا المعمدان) الذي ظهر على إثره المسيح عليه السلام. (المترجم)

ادعاء النبوة

إن التعميم المؤسف الذي وصفناه قد أدَّى إلى وضع (مبدأ النبوة) بين مجموعة ظواهر نفسية تُدرَس تحت اسم (الظواهر الباطنة) Phènomènes Pneumaiques، ويبدو لنا أن هذا التعميم منسوب إلى المصدر العبري خاصة ؛ لأن النقد الحديث يستقي منه أسانيده عن الموضوع.

هذه الأسانيد هي في الواقع المخطوطات الإسرائيلية في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وهي التي كانت مصدرًا للمعلومات الرئيسة عن الحركة النبوية.

على حين أن هذه الحقبة من التاريخ الإسرائيلي لم تكن فترة ارتقاء روحي، بل هي الأخرى فترة تدهور خلقي وديني، ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، وهذا التدهور هو على وجه التحديد موضوع دعوة الأنبياء منذ (عاموس) Amos ومعاصريه (ميخا) Michée و(هوشع) Osée الذين لم يأتوا ليعلنوا وعد البشارة والغفران، بل ليبلغوا وعيد العقوبة والبلاء.

وتفسير ذلك من وجهة نظر التاريخ هو أنه حدث في ذلك العصر أمران مهمان هما: هبوط درجة (رب العالمين) إلى مجرد إله قومي -من ناحية-، ودخول كثير من الشعائر والطقوس الآشورية الكلدانية في العبادة من ناحية أخرى، حتى أصبحت الشمس تتمتع بتقديس حار في بيت المقدس، فقد كان هناك (رجال يعبدون الشمس المشرقة، وفي أيديهم غصن...). كما يقول مؤرخو تلك الفترة.

ولكن إذا كان المستوى الروحي قد انحط تبعًا لهذا التلفيق والتأميم لفكرة الإله الواحد، فإن النشاط الديني الذي التزمته طقوس المعبد أو

نمّتـه، كان يغذي في روح إسـرائيل المتصوفة حمية واندفاعًا تمسـك الإسـرائيليون بمظاهرهمـا العامـة على أنهمـا أجزاء مكملـة للحركة الدينية. فقد تكاثر الكهان والعرافون وأهل الكشف في بيت المقدس، وكانـوا موضـع احترام الشـعب أو خوفه، لمـا خصهم به مـن المقدرة الخارقة. ولما كان من الضروري إطلاق اسـم على هؤلاء الذين يحظون بهذا الاحترام، فقد أطلق عليهم جميعًا اسم (الأنبياء) نظرًا لعدم وجود مصطلح اشتقاقي مناسب لهم.(١٠)

ونحن نعرف في إفريقيا الشمالية مثالًا لتطور المفردة ذات المعنى الأصلي الخاص إلى مضمون عام، فإن لفظ (المرابط) كان يطلق في الأصـل على عضو في إحـدى جمعيات الأخوة الدينية العسـكرية، الذين كان من مهمتهم السهر على حدود (دار الإسلام)، وما حدث لهذه اللفظة فيما بعد معروف(١١).

وعلى كل حال فإن الاستعمال الدارج لهذا اللفظ لم يقتصر على الاستعمال الشعبي، فقد كان له أيضًا حق التطرق إلى الأدب الديني في هذا العصر. وكان يطلق خاصة على الموظف الكهنوتي المكلف رسميًا بالتبشير في المعهد.

وسـيطلق لفـظ (النبـي) أيضًـا على كاهـن الإله (بعـل)، كما

---

(١٠) جـاء في الحاشية على الجزء الثاني من الكتاب المقدس طبعة اليسوعيين صفحة ٨٦٣ «يطلق النبي عند اليهود على كل كاتب ملهم فيدخل في ذلك (موسى وصموئيل). أمـا في عرف الكنيسة فيراد به من صدق عليه وصف النبوة من جهة معناها الوضعي أي الإنبـاء اليقـين بحوادث آتية لا يمكن أن يهتدى إليهـا بأسبابها ومقدماتها بمجرد استدلال العقل». (المترجم)

(١١) قصـد بلفظ (مرابط) في التاريخ أحد معانٍ ثلاثة على التوالي فهو في البداية كان المعنى المذكـور ثم أطلق عنوانًا على الدولة المعروفة في تاريخ المغرب والأندلس ثم أخيرًا صار عنوانًا على الدراويش أهل (الزردة) أي الولائم المعتادة ... (المترجم)

يلاحظ ذلك في كتاب (يونان) أو يونس. وعندما جاء الأنبياء مثل (عاموس وأرمياء) ليقلبوا هذا المجتمع البدعي بصرخاتهم وتنبؤاتهم المروعة التي خلقت جوًا مضطربًا، واستحوذ على الجماهير لون من المحاكاة أو التقليد تبعًا للموقف الجديد، بدأ جميع (الأنبياء) في التنبؤ، كلٌّ من ناحيته، وبذلك نشأت حركة التنبؤات المزعومة، فوجدنا كلا الوجهين: رجل الدعوة الصادق ومدعي النبوة، يتطوران معًا في تاريخ هذه الحقبة التي منحت إقبالها أحيانًا لنبي مدّع هو (حنانيا)، بينما تصاممت عن الدعوة اليائسة المروعة للنبي (أرمياء).

وعلى كل، فإن هذا العصر قد خلط بين شخصيتين متميزتين، وغالبًا متخاصمتين، وتمثلان تيارين مختلفين للفكر متعارضين غالبًا.

ولقد تجلَّى هذا الخلطُ في التعميمات المفرطة في الدراسات الحالية للظاهرة النبوية، وهي التعميمات التي تقحم الصفات الخاصة بالنبي في نموذج مُطَّرد هو: (العراف). ومن خلال هذا النموذج يريد النقد الحديث أن يكشف حقيقة النبوة التي سبق أن اعتبرها ظاهرة ذاتية، وهو بذلك يعطّل منذ البداية دراسة الظاهرة حين يؤكد (أن ما يراه العراف ويسمعه في حالات انجذابه وغيبوبته رهنٌ بشخصيته، وربما يكون هذا ثمرة ناضجة في اللاشعور، من تأملاته ومن أحواله الدينية السابقة، ومن ميوله الداخلية المتعمقة في وجوده كله، والتي تتجلى حينئذ أمام ضميره كأشياء تبدو له خارجة عنه).

هذا النص يهدف بوضوح إلى جعل النبوة من المجال الذاتي للنبي، دون أن يهتم بشهادة هذا الأخير الذي يؤكد بكل قوة أنه يرى ويسمع موضوعه خارج مجاله الشخصي.

النبي

لـو أتيح لعلماء الطبيعة أن يحملوا قطعة من الحديد على الكلام عندما تكون متعرضة للتأثير المغناطيسـي، لأسعدهم دون ريب أن يسـألوها عن مجموعة من المعلومات الخاصة بحالتها الباطنة، بدلًا مـن أن تتحول معلوماتهم آخر الأمر -كما هو الواقع- إلى فروض لا يبرهن عليها الحساب بشكل قاطع.

ومع ذلك فإن النبي (ذات) يمكن أن تحدثنا عن حالتها الداخلية، ويمكن أن تبرهن عليها: أولًا لاقتناعه وتحققه الشخصي، وثانيًا من أجل ما يسمى بالاقتصاد الخارجي، أو السياسة الخارجية لرسالته.

فإذا حدث أن جاءت نبوة فيجب أولًا أن تعد سببًا يثير الاضطراب في ذات إنسانية، ويدفعها دفعًا لا سبيل إلى مقاومته نحو رسالة ما، لا تتضح دوافعها وأهدافها بوصفها حقائق محددة لهذه الذات.

ولهـذا فـإن معرفة النبي لهذه الظاهرة أسـاس لأية دراسـة نقدية للموضوع، فيونس وأرمياء ومحمد[١٢] أفراد أرادوا أولًا أن يتملصوا طواعية مـن دعوة النبوة فقاومـوا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرًا، فمقاومتهم تـدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم، وتتسـلط على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية.

---

(١٢) أم كلامــه عن يونس عليه السـلام فمسلم، أما عن محمد ﷺ ففيه نظر حيث لم يثبت بالنقل الصحيح أنه أراد أن يتملص عن الدعوة في بدايتها. (المجلة)

أرمياء

هـذا هـو أنصع مثـال يمكـن اسـتخلاصه مـن الحركـة النبوية الإسـرائيلية ليعـرض علينا الأفـكار العامة عن النبوة، وعن نفسـية النبي. ولقد سـبق أن اتخذنا الصحة التاريخيـة المقررة لكتاب هذا النبي أحد بواعث اختيارنا لحالته.

وهناك باعث آخـر هو أننا نريد أن نعقد موازنة علمية بين النبوة وادعـاء النبوة. ولقد سـبق أن بيّنا مصير كلمـة (النبي) في الآداب الدينيـة الإسـرائيلية في القرنين السـابع والسـادس قبـل الميلاد. وإذن فـإذا كان هناك مقياس يسـمح بالتمييز بين نوعين من الفكرة الدينيـة في ذلك العصـر متمثلين في أرمياء وحنانيا، فهو اسـتمرار فكـرة التوحيـد خلال الحركـة النبويـة كلها، منذ (عامـوس) إلى (أشعياء الثاني). ويتميز النبي الموحى إليه عن منافسه المحترف، بمقاومتـه العنيفة ضد الألوهيـة القومية، التي صـارت لب العقيدة الشـعبية، فجميع الاتجاهات الخلقية للنبي الموحى إليه قائمة على أساس الفكرة المتسـلطة الملازمة: فكرة إله واحد عام، يريد النبي أن يثبـت فرائضه الخاصة في شـعائر قومه. ولم تكـن آيات الوعيد المرعب، وإنذارات السـيطرة الخارجية والتهديد بهدم المعبد، إلا توابـع لهذه الفكـرة على الرغم مـن أنها كانت أكثر إثـارة لاهتمام الشعب، كما هي اليوم أكثر إثارة لاهتمام النقد الحديث بكل أسف.

وفي مقابل ذلك يقف مدعي النبوة موقف أحد الانتهازيين الذين يتبعون التيار الشـعبي، فهو بهذا لا أثر له أخلاقيًا وليس ملهمًا، بل إن موقفه تجاه عقائد عصره هو موقف المبالغة في التسـاهل لدرجة التملق والملاينة. ومـع ذلك فإذا لم يكن هناك مجال للحديث بعد محمـد ﷺ عـن الحركة النبويـة بمعنى الكلمة فـي التاريخ الديني

للإنسـانية، فقد اسـتمرت حركة ادعاء النبوة في الظهور في جميع العصـور وفي كل مكان تقريبًا . فهناك كثير من المنقذين في الهند، وهنـاك الأب الربانـي فـي أمريكا قبل سـنوات الحـرب، كما ظهر (الباب) في فارس، فمتى ميزنا بين هاتين الوظيفتين : النبوة وادعاء النبوة، بناء على صفاتهما التاريخية ومبادئهما الفلسـفية، فبديهي أن نميز بين العاملين اللذين يؤديانهما، وهما النبي ومدعي النبوة؛ فمهمة الأول في سماتها الخالصة : أن لها مبدأ وثيقَ الصلة بالأفكار العامـة للحركـة النبويـة، ولها زمن يتناسـب مع عرض هـذا المبدأ وتبليغه، وهذه حالة (عاموس) الذي يرعى كباشـه في (تكوا)[١٣] في هدوء بعد تبليغ دعوته وتحذيراته المروعة. على حين لا يبشـر مدعـي النبوة بمبدأ شـخصي بالمعنى الصحيح، بـل يكتفي إما بأن يطنـب في شـرح رسـالة النبي، وإما بأن يبشـر بنوع مـن المعارضة فـي مقابل رسـالة النبي : فعندما حمـل أرمياء النيـر الرمزي، وبالغ في إنذاره بالتشـاؤم، جـاء حنانيا المتنبئ ليحطم هذا النير ويبشـر بالتفـاؤل حتى أثر على النبي المتشـائم نفسـه مؤقتًا؛ هذه الموازنة الموجزة تبين تياري الفكرة الدينية، والرجلين اللذين يعبران عنها، وهكذا نرى الأسباب التي توجب عدم الخلط بينهما.

(١٣) قرية اندثرت من قرى فلسطين.

الظاهرة النفسية عند أرمياء

لقد قدم لنا (أرمياء) على الظاهرة النبوية شهادة من أقيم الشهادات وأصرحها، فقد أورد تفصيلاً وصفيًا ذا أهمية قصوى لسلوكه الخاص حيال الظاهرة، وأشركنا في تأملاته المرة أحيانًا، تلك التأملات التي توحي بها إليه حالته، فقال: «لقد صرت محور سخرية طيلة النهار، فالجميع يهزءُون بي؛ لأني كلما تكلمت وجدتُني مضطرًا لأن أصرخ، وأعلن الجبروت والخراب؛ لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عار واستهزاء مستمر، فإذا قلت: لم أعد أذكره، أو أتكلم باسمه، وجدت في قلبي كالنار المضطرمة المستكنة في عظامي، فأحاول أن أطفئها، ولكني لا أستطيع»[14].

وإذن فـ(أرمياء) يرسم بطريقة ما الخطوط الداخلية لذاته، ونحن نجد في وصفه هذا ثلاثة عناصر مترتبة متميزة:

أولها: الاحتراق العميق لمشاعره المضطربة، من جراء الاستهزاء الذي يلقاه.

وثانيهما: إرادته أن يتخلص من دعوته، بامتناع ناتج عن تأمل وإعمال فكر.

وثالثهما: عنصر ثابت يبدو أنه يطبع هذه الحالة النفسية كلها، ويطوق إرادة ذات النبي، وهو الذي يشير إليه ما يجده في قلبه (كالنار المضطرمة). هذا العنصر الأخير هو الذي نعده العنصر الجوهري في الحالة الداخلية للنبي، إذ هو يحدد بصفة نهائية سلوكه في المستقبل، وهذا السلوك يُعد قطعًا جوهر حياة النبي. ولنا أن نعد هذا العنصر عاملاً دائمًا مطلقًا عند النبي، فإن (أرمياء)

(١٤) أنبياء بني إسرائيل ص ١٩٢، ١٩٣ بالفرنسية لـ(أندريه لودز).

كان يستطيع أن يعطينا سمات أخرى لذاته متمثلة في أحوال أخرى للضمير، ربما لا نصادف فيها عوامل (الحساسية) و(الميل إلى الامتناع)، وإنما نلقى (النار المضطرمة) نفسها مسهمة في عوامل نفسية جديدة، تحذف من السلوك الأساسي للنبي في النهاية.

ولنأخذ على ذلك مثلاً: حينما جاء (حنانيا) (ليحطم الطوق الخشبي الذي كان في عنق النبي) قائلاً: (هاك ما قال الله، وسأحطم هكذا نير ملك بابل).... لقد أجابه (أرمياء) في براءة وحسن طوية مدفوعًا بمحض اختياره: (آمين.... حقق الله ما تقول). ثم لم يروه عدة أيام ينشر دعوته، ومع ذلك فإنه لم يلبث أن ظهر في الأماكن العامة وليس معه هذه المرة طوق خشب، بل طوق من حديد، أمارة على تصميمه القاطع النهائي على الاستمرار في دعوته العابسة.

وأيًا ما كانت الأسباب النفسية التي حتمت هذا التوقف المؤقت لنشاط النبي، فإنه مما له دلالته الكبرى أنه عاد أخيرًا إلى رسالته. فالعنصر الدائم الذي وصفناه ينفي أخيرًا ودائمًا جميع العوامل النفسية عند النبي، ذلك العنصر الذي ينظم له نهائيًا سلوكه في المستقبل. فهذا العامل له إذن بعض القهر بالنسبة لذات (أرمياء)، إذ هو ينتصر تمامًا على مقاومته، فيُذِلّ حساسيته، وينفي ثقته الشخصية في تنبؤ (حنانيا)، وإن كانت تلك إلى أجل. وهذا العامل هو الذي قمع ألمه عندما وضعه كاهن المعبد في (الفلقة) بتهمة التحريف، قمع ألمه قمعًا محا لديه الغريزة الأولية للمحافظة على النفس، عندما كبدته تنبؤاته المشئومة أن يلقى به ذات يوم في (الجب) حتى كاد يهلك. إلى جانب هذا القهر الذي رأيناه في الإطار النفسي للنبي، والذي يقهره على قضائه بصورة لا تقاوم، يجب أن نضم قهرًا من نوع آخر، ذلك الذي يتجلى في أحكام (أرمياء) على

أحــداث عصره. والحــق أن النبي قد حكم على هــذه الأحداث على نحو يختلــف تمامًا عن أحكام معاصريه، وطريقتــه الفذة في النظر إلى أشياء صدقتها الأحداث بشكل عجيب. هل يجب أن تعزى هذه (النظرة العميقة) إلى مواهب شــخصية، أي إلــى مقدرة هائلة على الاستنتاج، وذوق نقدي نادر لمجرى التاريخ؟!

إن النقــد الحديث يفســر لغز النبوة بهــذه الطريقة، حين يخص الأنبياء بهبة معينــة، تخول لهم الحكم العميق على التاريخ، ولكن يبــدو أن هذا الرأي العقلــي (المنكر للوحي) قد فاتــه أن ما ينقص (أرميــاء) - مثــلًا - بصفــة موضوعية هو الأســاس العقلي لأحكامه على أحداث التاريخ. وأكثر من ذلك، فإن الأنبياء باعتبارهم مصادر لنبوءاتهــم لــم يرجعوا إلــى منطق الأحــداث، بل لقد تجــاوزوا هذا المنطــق؛ ولهــذا يظهرون أحيانًــا في نظر معاصريهــم بمظهر عدم الاتســاق في التفكير، فإن هؤلاء المعاصرين يبرهنون بطريقة أكثر اتفاقًــا مــع العقل ويجعلــون لنظراتهم أساسًــا مســتمدًا من أحداث التاريخ.

ولنأخــذ مثلًا: حالة الإســرئيليين أثناء أســرهم ببابل. لقد كانوا يأملون العودة القريبة إلى وطنهم. وهم ينظرون -في دهشــة وأمل- إلــى ارتقــاء حاميهــم (إميــل مــردوخ Emel Mardoukh) على العــرش، فقــد كان ارتقاؤه غيــر متوقع!! أي شــيء يمكن أن يكون مطابقًــا للعقل أكثر من أمــل كهذا؟ وكان ملك بابل في ذلك الوقت قــد انتهج (سياســة يهوديةً جديــدة) بإطلاق ســراح (جيكونياس Jeconias) ملــك (جــودا Juda) الأســير الــذي أصبــح الجليس المبجل لمعتقه. فالأمل إذن كان المنطق بعينه!!

لكــن (أرميــاء) قد ذهــب منــذ البداية إلــى نقيض هــذا الأمل

الذي حقَّر من شـأنه بمواعظه التشـاؤمية، فقد حـذَّر الأمةَ من نير أكثر قسـاوة. ولقد صدق التاريخ بطريقة عجيبة تشـاؤم (أرمياء) الرهيب، فقد هلك (مردوخ) في الواقع مقتولاً. ويمكن أن يقال: إن المفاجآت قد صدقت تشـاؤم النبي، ولكن لا يمكن القول بأنه قـد تنبأ مصادفـة. ومع ذلك فإن هذا التشـاؤم لم يبـدأ في الدعوة النبوية بـ(أرميـاء) المعاصر للأحداث، فمنـذ (عاموس) وصوت الأنبيـاء يـردد النذيـر فـوق رأس الأمـة اليهودية: (فليهـدم بيت المقـدس Delunda est jérusalem) حسـب تعبيـر (لـودز M. A. Lods)، فلـم يفعـل (أرميـاء) إلا أن شـدَّد عليهم النذير، ورأى وقوعه فعلاً.

وهكذا تسمح دراسة حالة (أرمياء) بوضع صفات تحدد بوجوه مختلفة، وبطريقة موضوعية مبدأ النبوة، فهناك:

أولًا: صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات، بإلزام النبي في النهاية بسلوك معين ودائم.

وثانيًا: حكم فذ على أحداث المستقبل، يمليه نوع من القهر الذي ليس له أي أساس منطقي.

وثالثًا: استمرار مظاهر السلوك النبوية، وتماثلها الظاهر والخفي عند جميع الأنبياء.

هذه الصفات المميزة، لا يمكن أن تَلقى ببساطة تفسيرًا نفسيًا، قائمًا على الحوادث التي تخضع لها ذات النبي، والتي يبدو أنها لا تبرز هنا إلا في مجرد صورة مترجم مرهف الحس - متمنع أحيانًا- لظاهرة مستمرة تلزمه بقانونها، كما ألزمت ذوات جميع الأنبياء، كما يثبت المجال المغناطيسي، اتجاه جميع الإبر الممغنطة. فمن الصعب أن نفسر ظاهرة - هذا وصفها- تفسيرًا ذاتيًا شخصيًا. فهناك لغز فسره النقد -المولع بإرجاع كل شيء إلى أفكار ديكارت مهما كلف الأمر- تفسيرًا عجيبًا هو: أن النبي شخص مزدوج، مزود بذاتين تسأل إحداهما الأخرى، وتتأثر بانكشافاتها!

ولكنهم لم يهتموا بتحديد موضع هذه الذات الثانية في الفرد، الذي يعده علم النفس التحليلي منقسمًا إلى ميدانين: اللاشعور، والشعور. فهل الذات الثانية موضعها الشعور أو اللاشعور؟ أو كلا المجالين في وقت واحد؟

لم يقل أحد شيئًا كهذا. وهل هذا يستدعي منا فرضًا آخر؟ فإذا كانت الذات الإنسانية الواحدة لا تقدم تفسيرًا كافيًا للظاهرة، فلن

يتحقق هذا بمزاوجة هذا الكيان النفسي أو مهمة تضعيفه، لكي يقدّم للظاهرة تفسيرًا أفضل. وحينئذ يبدو أنه لم يعد هناك تفسير آخر ممكن إلا أن نضع الظاهرة خارج الذات، ومستقلة عنها استقلال المغناطيس عن الإبرة. ومما يدعم هذا الرأي: شهادة الأنبياء على أنفسهم، تلك الشهادة الوحيدة، والمباشرة على الظاهرة، فقد وضعوها بالإجماع خارج كيانهم الشخصي. فإذا صلح هذا الرأي لأن يكون فرضًا، فإن هذا الفرض لن يكون أقلَّ صحة من افتراض النقد الحديث. وهذا هو الفرض الذي نريد أن نجعله - أساسًا- ختامَ هذا الفصل، محتفظين بالتوسع فيه خاصة في الفصول التالية.

بحث المصادر:

فــي دراســة نقدية للإســلام، لا نســتطيع أن نغفــل أهمية فحص الوثائق المدونة أو التاريخية، التي يمكن أن تلقي ضوءًا على الظاهرة القرآنية. على أن هذه المشــكلة التاريخية قد حلت بالنسبة للإسلام بصفــة اســتثنائية: فهو الوحيد من بيــن جميع الأديــان الذي ثبتت مصــادره منذ البداية، وعلى الأقل فيما يختــص بالقرآن. ولقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشــر قرنًا، دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب، وليســت هذه حال العهد القديم (التــوراة)، الذي لــم تعترف له بالصحة الدراســة النقدية للشــراح المحدثيــن، فيما عدا واحدًا من كتبه هو كتاب (أرمياء).[١٥] وليس العهــد الجديد (الإنجيل) بأســعد حــالاً، فقد ألغى مجمع أســاقفة (نيقيــة) كثيرًا من أخباره، مما زرع الشــك حول ما تبقى منه، وهو (الإنجيل).

وهــذا الأخير بدوره لا يعــد الآن من الصحاح: لأن النقد أثبت أنه قــد (وضع) بعد المســيح بأكثر من قرن، أي بعــد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية.

وعلــى هذا فإن شــكوكا كثيــرة تحوم حــول القضيــة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية.

هــذا التحديد الكامل للنص القرآني على عهد النبي نفســه، يعد ظاهــرة جديــرة بالملاحظة من وجهة علــم الاجتمــاع وعلم النفس بخصوص الوسط العربي في العصر المحمدي. فتلك نقطة جوهرية

(١٥) (مونتيه Montet) (تاريخ الكتاب المقدس) طبعة جنيف.

تســتحق البحــث والوقوف أمامهما، إذ ليســت هنا مشــكلة تدوين بالنســبة للقــرآن، كما هــو الأمر بالنســبة للكتــاب المقدس؛ وهي أيضًا مؤيــدة بحقائق التاريخ التي ينبغي أن نلفت إليها انتباه القارئ ليلاحظ هو أيضًا توافق واقع التاريخ مع هذه الآية القرآنية:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

ومع ذلك فإن لهذا (الحفظ) تاريخه: فكلما كان الوحي يتنزل، كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول وصحابته، وتسجَّل فورًا بأيــدي أمناء الوحــي، فقد كانوا يســتخدمون من أجــل ذلك كل ما يصلح للكتابة كعظام الكتف أو قطع الجلد... إلخ.. حتى إذا قُبض رسول الله ﷺ كان القرآن محفوظًا في الصدور، مدونًا في الصحف، فكان من الممكن كلما دعت الحاجة موازنة الآيات بعضها ببعض، ولا سيما حين يعرض اختلاف من نوع صوتي أو لهجي.

وفضلًا عن ذلك فسنجد أن هذه الموازنة تحدث مرتين، والطريقة التــي نفــذت بها هي في ذاتهــا حدث فذ في تاريــخ الصناعة العقلية الإنسانية، فللمرة الأولى تتجلى صفات الطريقة المنهجية في عمل عقلي، كما تتجلى الدقة التي هي الآن وقف على التفكير العلمي.

فقــد اختار الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لجنة يرأســها زيــد بن ثابــت، الذي كان أمينًــا للوحي على عهد الرســول، كتبت القــرآن منظمًــا لأول مــرة[١٦]. ويبدو أن زيدًا أحجــم أولًا عن القيام بهذه المهمة لأمرين:

---

(١٦) المقصود هنا أن الكتابة المنظمة للقرآن لم تحدث إلا على عهد أبي بكر، أما ترتيب الآيــات والسور فقد كان توقيفيا مــن جبريل للنبي ﷺ حــين كان يعارضه بالقرآن وبخاصة بعد حجة الوداع. (المترجم)

أولهمـا : أنه لا يريد بوصفه صحابيًا أن يقوم بمحاولة لم يقم بها النبي، أو يأمر بها.

وثانيهما : أنـه بوصفـه مؤمنًا يتحاشـى مثـل هذا العمـل؛ لأنه يخشـى مقدمًا أبسـط الأخطـاء المتوقعة في تنفيـذ مهمته، وبرغم هذا فقد تمت هذه المهمة بفضل الجهود المتعاونة الواعية لأعضاء اللجنة. وكانت الطريقةُ التي اتُّبعت بسيطة، ولكنها مدققة؛ لأنهم كانـوا يحفظـون القرآن عن ظهر قلب، بالنظام نفسـه الذي تعلموه في صحبتهم بإرشـاد الرسـول لهم، فإن حدث اختـلاف رجعوا إلى القطع التي كتبت فيها الآيات عند نزولها؛ حتى يرفعوا الشـك عن موضوعهـا. ولم يكتفوا بكل هذه الاحتياطات الملحوظة، فإن زيدًا وعمـر رضي الله عنهمـا قد ذهبا إلى باب مسـجد المدينة، وهنالك أشـهدا بقيـة الصحابـة لتوثيـق الروايـة المكتوبة بواسـطة اللجنة نفسها.

بيد أن هذه الجهود قد أجازت نص القرآن مع بعض الاختلاف في اللهجات الشائعة بين عرب الجاهلية.

لم يسـترح عثمان - الخليفـة الثالث- لهذا الاختلاف، وأمر بأن تكتـب رواية موحـدة فريدة بلغة قريش. فاختيـرت لجنة ثانية على رأسـها زيد أيضًـا، وكلفت أداء هذه المهمـة الجديدة، وكان عليها هـذه المـرة أن تثبـت النص القرآنـي نهائيًا في لغة واحـدة، حتى لا يتسـبب تنوعُ اللهجـات في إحداث الشـقاق والتدابر في المجتمع الإسـلامي، وأنهـتْ اللجنـةُ عملها عـام ٢٥هـ. ومنذ ذلـك العصر والقـرآن يتنقل مـن جيل إلى جيـل، بصورة وحيدة فريـدة متعارف عليها، من مراكش إلى حدود منشوريا.

فهو على هذا، الكتاب الديني الوحيد الذي يتمتع بامتياز الصحة

التي لا جدال فيها ؛ لأنه لم يثر النقد أية مشكلة حوله ، سواء أكان ذلك شكلًا أم موضوعاً .

والمصدر الثاني المدون عن الإسلام ينحصر في أحاديث الرسول ﷺ ، ومن المؤسف أنه لم يتوافر لهذا المصدر ما توافر للأول من الصحة التاريخية ، فإن الأحاديث لم تحفظ بالعناية المنهجية نفسها التي ظفر بها القرآن ، فلقد منع الرسول في حياته الصحابة بقوة وصراحة من أن يكتبوا أقواله ؛ حتى لا يحدث أدنى خلط ممكن بين ما ينطق به ، والآيات المنزلة أي بين السنة والقرآن . ولم تظهر أهمية الحديث إلا بعد وفاة النبي ﷺ ، وخاصة من الناحية الشرعية بوصفه مصدرًا ثانيًا للتشريع الإسلامي . وظهرت هذه الفكرة في تاريخ التشريع الإسلامي عند سفر معاذ بن جبل ، الصحابي الذي اختاره الرسول ليقضي بالإسلام بين أهل اليمن ، بعد غزوة حنين ، وعندما أراد الرسول أن يوصيه سأله : كيف تقضي فيما يَعرِض لك ؟ فقال معاذ : «أقضي بكتاب الله ، فإن لم أجد فيه ، أخذتُ بسنة رسول الله ، فإن لم أجدْ فيها أجتهدُ رأيي ولا آلو » .[17] ولقد أيد الرسول عليه الصلاة والسلام طريقة معاذ في النظر ، تلك التي تعرض ضمنًا المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، وتعرض أيضًا القياس مصدره الثالث .

ومع تكاثر الحاجات في المجتمع الإسلامي نما هذا التشريع ، فاتجه الفقهاء إلى أن يثبتوا - ما وسعهم الجهد - الأحاديث التي يجب أن تصبح عنصرًا جوهريًا في الفقه القانوني ، ومع ذلك فإن المسافة بين وفاة الرسول وعصر تدوين الحديث كانت ذات أهمية ،

---

(١٧) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية (٢٣) باب (١١) (اجتهاد الرأي في القضاء) حديث رقم ٣٥٩٢ (ف).

إذ حدث خلالها خلط كثير، وشكوك مضاعفة بين الأحاديث الصحيحة وغيرها.

ومنذ ذلك الحين وُضعت طريقة نقدية صالحة لتمييز ما هو صحيح عما ليس كذلك، فطبقت طريقةُ النقد التاريخي التي تشمل تحقيق اتصال الرواية، وقيمة الرجال الذين وصل عن طريقهم الحديث. وقد أدى هذا الوضع بالمحدثين إلى أن يصنفوا الحديث ثلاث مجموعات تبعًا لدرجة التثبت التاريخي: الصحيح، والضعيف، والمكذوب.

فهذه هي مصادر الإسلام المدونة، في حالتها الراهنة: الآيات القرآنية الصالحة لأن تستخدم وثيقة تاريخية مطلقة الصحة؛ والحديث الذي يختلف في درجة الصحة، والذي لا يصح أن يستخدم -على كل حال- في أية دراسة نقدية إلا مع الاحتياطات المستخلصة من الطرق نفسها التي اتبعها العلماءُ المحدِّثون المنزَّهون عن الكذب أو الغش أو التدليس، كالبخاري ومسلم.

وبهذه الاحتياطات يصبح المصدران اللذان يستخدمهما الباحثون في الإسلام، صحيحين على سواء، وسيكون من النفج[١٨] والادعاء أن نرفض منذ البداية باسم المنهج ما تقدمه لنا السنة من أسانيد.

(١٨) نفج الشيء نفجا ونفوجا ارتفع، وفلان فخر بما ليس عنده ولا فيه، ويقال نفجت الريح هبت عاصفة... (المعجم الوسيط)

الرسول

ربما لا يمكننا الاستغناء في دراسة الظاهرة القرآنية عن معرفة الذات المحمدية، معرفة صحيحة بقدر الإمكان، وهذه المعرفة ضرورية هنا ضرورة تحديد الأبعاد الثلاثة في دراسة الخصائص التحليلية لمنحنى هندسي. فالظاهرة التي ندرسها مرتبطة في الواقع بذات محمد ﷺ، ولكي نخرج بنتيجة عن طبيعة هذا الارتباط لا بد أن نخطو خطوة أولى لنضع مقياسًا أول مدعمًا بكل العناصر الخاصة بتجلية (الذات)، التي هي موضوع القضية وشاهدها وقاضيها.

وبالتالي يجب أن نحوط أنفسنا فيما يتصل بهذا الشاهد وذاك القاضي بضمانات تكفل لنا الثقة الضرورية لشهادته ولحكمه. ولن يمنعنا هذا من أن نقوم من ناحية أخرى بخطوة ثانية، هي أن نضع مقياسًا ثانيًا يتيح لنا أن نحكم مباشرة بأنفسنا على الظاهرة. ومن الطبيعي الآن أن توضع أسئلة فيما يتصل بموضوع هذا الشاهد، وهي الأسئلة التي توضع عادة من أجل الاستيثاق الخلقي والعقلي ممن يحتاج لأمر إلى تسجيل شهادته. فإن ذكاء عقله، وإخلاص قلبه يجب ألَّا يثيرا أو يحتملا أدنى شك، كيما يمكن استخدامهما كعنصر تاريخي جوهري في المشكلة.

وفي سبيل هذا ربما كان من الواجب أن نعرض التفاصيل كلها في حياة رسول الله، فكل تفصيل يقدم لنا حقيقة تهم هذا المقياس.

ولكننا لا نرى من الضروري أن نعلق في متحف جد غني صورة جديدة للنبي، فإن لدى القارئ مندوحة ليطلع على المؤلفات العديدة في سيرته، إذا هو أراد أن يشبع رغبته في معرفة الصورة الباهرة لهذا الإنسان، سواء في تلك المؤلفات التقليدية كابن إسحاق وابن مسعود، أم في دراسات تراجم الرجال التي أخرجتها المطابع

الحديثة لـ(دينيه Dinet) و (درمنجهام Dormengham) . . . ! إلخ .

أما نحن فلا نهتم إلا بتخطيط صورة نفسية لا تهمنا فيها التفاصيل التاريخية ، إلا بقدر ما تعيننا على ما نريد تخطيطه . وهكذا تنقسم حياة النبي ﷺ في نظرنا إلى مرحلتين متتابعتين : الأولى : عصر ما قبل البعثة وهو يمتد إلى أربعين سنة . والثانية : العصر القرآني وهو يضم كل زمن الوحي ، وهو عبارة عن ثلاثة وعشرين عامًا ، ومع ذلك فكل من هاتين المرحلتين مطبوعة بحدث رئيسي يعد فاصلًا يقسمها إلى مرحلتين ثانويتين : فزواج خديجة رضي الله عنها يعد في الواقع فاصلًا خطيرًا فيما يتعلق بمرحلة ما قبل البعثة ، فنحن نجد نبيَّ المستقبل ينزوي في خلوة روحية ، حتى تلك الليلة الخالدة . . . ليلة الوحي .[19]

والهجرة هي الفجوة التي تفصل زمن تبليغ الدعوة فحسب ، عن زمن الانتصارات الحربية والسياسية التي فتحت للإمبراطورية الإسلامية الفتيّة باب التاريخ .

وسنبحث الآن بإيجاز هاتين الحقيقتين المتتاليتين ، مُوردين في كل منهما الأحداث التي تطبع شخصية النبي ، والتي انطبَعت بشخصيته ؛ كيما نكشف بقدر الإمكان عن طبيعة الارتباط بين الذات المحمدية ، والظاهرة القرآنية .

---

(١٩) نحن -حقيقة- تنقصنا الوثائق عن الطريقة التي كان النبي في تلك الحقبة يقسم وقته بمقتضاها بين واجبات الروح وحاجات الدنيا. (المؤلف)

عصر ما قبل البعثة

طفولة النبي- نشأته:

إن هنــاك تقاليــد طيبــة مشــتركة بيــن جميع الشــعوب، تحوط مهــود عظماء الرجال وقبورهم بالأســاطير؛ ولقد أحاطت الروايات الإسلامية الوســط العائلي للنبي وميلادَه وطفولته بالخوارق المنبئة بمــا ينتظره من مســتقبل فريد رائــع، ولكن ليس مــن الضروري أن نهتم بدرجة صحتها التاريخية؛ لأنها لا تهم موضوعنا مباشــرة، بل إننا ســنصرف كثيرًا من اهتمامنا إلى التفاصيل التي ستكشف شيئًا فشــيئًا عن الصفــات الخاصة بذلــك (الطفل)، الذي ظل بالنســبة لمرضعته (حليمة) مصدر سرور وقلق معًا.

لقــد شــب الطفل عندها كأنه نبتة قوية من نبــات الصحراء، ولكنه حين كان في دور الرضاعة كان يبكي كلما كُشف من أجل النظافة[٢٠]، فإذا أرادت مرضعته أن تهدئ من بكائه خرجت به في الليل أمام الخيمة، فيُغرَم الطفل بمنظر الفلك الداجي، الذي يبدو أنه كان يســلط جاذبية مؤثرة على مقلته، لا زالت تتلألأ فيها العبرة الأخيرة.

كبــر الطفل الآن، وصــار يلعب في نواحي الخيمــة مع إخوته في الرضاعــة. ومــع ذلك فــإن عارضًا قد حــدث بالتأكيــد فغيَّر مجرى حياتــه. فما هــو هذا الذي حدث؟ لقد جاء أحــد إخوته في الرضاعة ذات يوم مبهورَ الأنفاس، ليقص متلعثمًا على حليمة المذعورة حادثًا غريبًــا فاجأ محمدًا، فهبَّــتْ حليمة من فورها تبحــث عن رضيعها، فلمَّــا لقيته أكَّد لها ما حدث قائلًا: «جاءني رجلان يلبســان البياض فأمسكاني وفتحا صدري وقلبي وأخرجا منه علقة سوداء»[٢١].

---

(٢٠) لم أجد لهذا الخبر أثرًا في كتب السيرة المعتمدة. (المترجم)

(٢١) قال المقريزي في (إمتاع الأسماع) عند حديثه عن رضاعة الرسول في بني سعد: =

وترى السـيرةُ فـي هذه القصـة اقتلاعًا رمزيًا للإثـم من جذوره، وربما أوْرد لها بعضُ المفسرين قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (الشرح: ١ – ٣)

ولكن من الثابت أن حليمة قد أعادت الطفلَ إلى مكة عندما كان في الرابعة أو الخامسة من عمره.

فماذا يمكن أن ينطبع في عقله من هذه الحقبة من الحياة الوثنية والبدوية؟ لا شـيء – بـكل تأكيد– يمكن أن يكون قـد علق بذاته فيما يتعلق بالدعوة المقبلة.

وبعد قليـل ماتت أمه (آمنة)، ولم يعد للغلام منزل أبوة، فضمَّه جده (عبد المطلب) إليه. ثـم مات الجـد العجـوز، فكفله عمه (أبو طالب)، أبو (علي)، وكانت سـنه ﷺ آنذاك سبعًا أو ثمانيًا. وفـي منزل الوصـيّ حيث لا ثروة تُغني أهل البيـت عن العمل، كان عمـه يعمل قائدًا ورائـدًا للقوافل المَكية، فكان يذهب في مواسـم معينة إلى مراكز التجارة الشـامية؛ لمقايضة منتجات الهند واليمن بمنتجات بلاد البحر الأبيض المتوسـط، وفي إحدى هذه الأسـفار، حين بلغت سـن النبي إحدى عشـرة أو اثنتا عشـرة سنة، توسل إلى عمـه أن يصطحبـه، ولكنه رفـض؛ لأنه لم يكن يريـد أن يصطحب رفيقًا حدثًا مثله، في سفر طويل قاسٍ.

= «وشُـقَّ فؤاده المقدس هناك، ومُلئ حكمة وإيمانًا بعد أن أخرج حظ الشيطان منه». وروى البخـاري في صحيحه «شق صدر رسـول الله ﷺ ليلة المعراج» وقد استشكله أبـو محمد بن حزم. كما روى مسلم في صحيحـه «ج٢ ص٢١٥ بشرح النووي – طبع المطبعـة المصرية) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. قال أنس: «وقد كنـت أرى أثر ذلك المخيط في صدره». (على أن الشق في فترة الحضانة روي أيضًا في مسند الدارمي المقدمة باب ٣) (ف). (المترجم)

ومـع ذلـك فقد ألح الغـلام وذاب في دموعه، وألقى بنفســه بين ذراعي عمه الذي استجاب أخيرًا لمطلبه المؤثر.

تلـك إذن هي المـرة الأولى التـي اتصل فيها النبــي ﷺ بالعالم الخارجـي، أي إنه عاش حتى الثانية عشـرة، في بيئـة عربية وثنية، يرعى إبل عمه في ضواحي مكة؛ ومعنى ذلك أن حياته لم تنطبع بأي ظـرف خـاص من نوع ثقافي، بل لقد عاش تلـك الفترة يتيمًا راعيًا. هذا السـفر غير المتوقع سـيضع في طريق الغـلام الحادث العارض الأول الذي يتصل مباشرة بالدعوة المستقبلة. فعندما بلغت القوافل مدينة (بُصرَى) بالشام، استقبلهم راهب الدير استقبالاً حارًا، وقدم لهم الضيافة المســيحية ثم انتحى ذلك الراهب المســمى (بَحِيرا) بأبي طالب جانبًا وقال له: «ارجع إلى مكة بابن أخيك، واحذر عليه اليهود فإنه كائن له شأن عظيم»[٢٢].

فهـل أَوْلى أبو طالب هذه الحادثة العادية في السـفر ما تسـتحق مـن الاهتمام، ليشـتركَ مع ابن أخيه في رسـالته المقبلة، وهو الذي مات دون أن يعترف مطلقًا بالإسـلام؟ وعلى كلٍّ، فإن رئيس القافلة المكية كان يجب عليه أولاً أن يكمل مهمته التجارية، قبل أن يأخذ طريق العودة.

أما فيما يخص الغلام، حتى على فرض أن القصة طَرَقتْ سمعه، فإن الحادث -فيما يبدو- لم يغير شيئًا من سلوكه كسائر شباب قريش.

والســيرة اليقظـة لوقائع حياته لم تذكر شـيئًا خاصًـا - منذ هذا الحادث التاريخي- يدل على أن نبي المستقبل قد تجلَّى له مستقبله. لقد بلغ (محمد) مرحلة المراهقة في مدينة مولده، فقد كان يختلط بالفتيان، مارًا بشهواتهم وأهوائهم دون أن ينزلق فيها، مع أن أحيان الفسـاد لم تكن قليلة هناك، فقـد كانت المصابيح الحمراء المعلقة

---

(٢٢) ابن الأثير ج٢ ص٢٤.

علـى أبواب الجـواري المنحرفات يجتذبن شـباب مكـة، المولعين بحمل السـلاح، وعشق النسـاء، ومطارحة الأشـعار، وهم يحلمون بشـجاعة عنترة وغرام امرئ القيس، وكل منهم يمنّي نفسه بتخليد اسمه، ويودّ لو يعلّق ذات يوم معلّقته (على أستار الكعبة)، والرسول ﷺ نفسـه قد حدثنا عما كان يراوده من نزعات الشـباب، فقد ورد فـي الخبر: أنـه كان يرعى غنمًا لأهله مع فتًى من قريش بأعلى مكة، فاستأذنه في أن يبصر له غنمه حتى يسمر بمكة كما يسمر الفتيان، فخرج فما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناءً وصوتَ دفوفٍ ومزامير فـي عرس بالمدينة، فلَها بذلك حتى غلبتـه عيناه فنام، ثمّ عراه مرة أخـرى مثل ذلك. ومن هذا يظهر أن حادثـا غير متوقع يحدث دائمًا ليحوله عن قصده، وليسـت الخرافةُ هي التي تتكلم في هذا الشـأن، ولكنه الشاهدُ نفسُه، أعني التاريخ القائم على الأحاديث الصحيحة، ولدينا في هذه النقطة مرجعٌ مهمٌ: فإن نبي المسـتقبل كان ولا شـك يلقى في غمار هذا الشـباب كثيرين من أصحابه الذين أصبحوا فيما بعد - مثل عمر- أبطالًا وشهداء في سبيل دعوته.

وفي هذا المرجع التاريخي شـهادة ضمنية من ألمع الأسـماء في التاريخ الإسـلامي، مثل خالد بن الوليد وعثمان بن عفان وغيرهما. أولئـك الذيـن أصدروا علـى نبي المسـتقبل حكمًا موجـزًا، ولكن كـم هو بليغ حين أسـموه (الأمين). لقد كان فـي أعينهم في ذلك العصـر الصـادقَ الأمين، وهذه الشـهادة التاريخيـة تعطينا تفصيلًا ثمينًـا للصورة النفسـية التي نحاول رسـمها، ومع ذلـك فإن حياته العادية البسيطة تستمر دون شيء في قطار أيامه؛ حتى سن الخامسة والعشـرين. فلـم يزل (محمد) عزبـا؛ لأنه لم يسـتطع الزواج، إذ لكي يطلب يد إحدى شريفات مكة ربما وجب عليه أن يدفع صداقا كبيرًا لا تسمح له به ثروته المتواضعة.

الزواج والعزلة

ومع ذلك ففي سن الخامسة والعشرين، جاءه غلام يسمى (ميسرة) ليفاتحه في أمر الزواج؛ ودار الحديث حول أرملة غنية شريفة من نساء مكة، تسمى (خديجة). ولقد رفض النبي مقدرًا حالته المتواضعة بالنسبة لوضع الزوجة المقترحة، ولكن الغلام الذكي عرف كيف يبدد وساوسه، وتدخلت خديجة بنفسها لتأييده، ونحن ندين لهذا التدخل ذاته بتفصيل قيم بالنسبة لتاريخ (الظاهرة القرآنية)، فقد كانت توجد في مكة إبان تلك الحقبة حالة نفسية خاصة، كما يوجد دائمًا في كل مكان قبيل الأحداث المهمة كالحرب مثلًا؛ كان أهل مكة ينتظرون النبي الموعود في سلالة إسماعيل، وكانت خديجة تغذي سر طموحها إلى أن تتزوج النبيَّ المنتظرَ، وتراه في (محمد)، الذي صارحته تمامًا بمشاعرها نحوه...

في هذه الظروف النفسية تم الزواج، وقد ترك لنا ضمنًا –من حيث المبدأ– شهادةً مهمة عن الذات المحمدية التي تتجلى لنا في ضوء هذه المناقشة الأولى عن مجيء النبي الموعود.

ونحن نجد فيه شهادة أخرى ليست بأقل أهمية، فقد ترك لنا وثيقة قيمة في سيرة النبي، وردت في الخطبة التي قالها أبو طالب عم النبي في خطبة ابن أخيه حسب عادة قريش، قال:

«أما بعد: فإِن محمدًا ممن لا يوازَن به فتى من قريش إلا رجح به شرفًا ونبلًا وفضلًا وعقلًا، وإن كان في المال قُلًا، فإِنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك»[٢٣].

---

(٢٣) كذا في هامش الكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٥، وقد وردت بصيغة أخرى في السيرة الحلبية ج١ ص١٣٩. (المترجم)

هذه السطور تصلنا جيدًا بصورة الأمين ؛ وتتفق من كل وجه مع الصورة التاريخية لبطل أعظم ملحمة في التاريخ الديني ، ولكن ها هي ذي حياته العادية تتغير فجأة ، فإن (محمدًا) سينسحب من مجتمع مكة ، وينعزل عن بيئته ويجمع نفسه متأملًا ، وهي عزلة ستكون لها نتيجتها في غار حراء.[٢٤]

فأي متاع ، وأي زاد روحي أو عقلي اصطحبه معه في تلك العزلة ، التي انطلق منها بعد خمسة عشر عامًا الشعاع القرآني؟

إننا نعلم عن هذا العصر أن العادات الوثنية في المجتمع الجاهلي كانت قائمة على أساس قديم من التوحيد التقليدي ، الذي ينعكس بوضوح في خطبة أبي طالب ، ولكن هذا التوحيد اللاشعوري لا يستتبع أية شعائر خاصة. فإن الكعبة كانت على وجه الخصوص معبدًا للأصنام ، أو مسرحًا سياسيًا للأسر السائدة ؛ أمَّا فيما يتعلق بالحياة الدينية في مكة ، فقد كانت منذ زمن طويل منظمة تبعًا لوحدة قَبَلية ملفَّقة ، تجعل (هبل واللات والعزى) على رأس مجموعة آلهة القبائل العربية كلها ، ولكن الأسر الكبيرة في مكة - بفضل التأثير السياسي والتجاري- قد استمسكت فوق هذه الوحدة الوثنية الملفقة بوحدانية غامضة ، تنعكس في الذكرى التي حفظوها باعتزاز وفخر لجدهم البعيد (إسماعيل) ، وعلى كل فإن هذه الذكرى لم تكن لتؤثر مطلقًا على عقائد العرب ، أو تقاليدهم الحربية ، وهذا يفسر لنا الصراع القاسي الذي سينشب

---

(٢٤) يجب أن يقصد بهذه العزلة المعنى الأعم؛ إذ هي عزلة الرجل الذي لم ينسحب من المجتمع كلية، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن أنه كان يحترف التجارة إبان تلك الحقبة، ولو كان قد قام برحلات كتلك التي قام بها قبل الزواج لذكرتها السيرة، ويبدو أن ثروة السيدة خديجة قد حملت عنه بعض العبء. (المؤلف)

بين المتمسكين بهذا النظام الجاهلي، وبين الإسلام الوليد.

وحتى أبو طالب، ذلك الشيخ القرشي الوقور الشريف الذي ذكرنا كلماته الكريمة المهذبة في خطبته، مات دون أن يكفر بالأصنام، على الرغم من توسل ابن أخيه إليه وإلحاحه عليه.

تلك كانت الفكرة الغامضة التي تَسنَّى لنبي المستقبل أن يصطحبها في عزلته عن دين جده إبراهيم، ومع كل فيجب أن نضيف أن هذا الدين قد ظل في حالة أكثر صفاءً عند بعض المتصوفة الذين كانوا يُسمون في ذلك العصر (الحنفاء)، وهؤلاء الحنفاء كانوا رجالاً من طراز نادر، تركوا وثنية عصرهم لكي يعكفوا على عبادة إله واحد، لكن حياة التصوف التي عاشها هؤلاء النساك لم يصحبها أي نظام خاص، أو شكل من أشكال الطقوس، وبالأحرى لم يكن لهم أي اتصال روحي بطائفة من أهل الكتاب، فإن مصادر العصر التاريخية لا تصف أية كنيسة في مكة، أو أي كنيس أو دير في ضواحيها؛ لقد انسحب الحنفاء فقط في أماكن منعزلة، دون أن يقطعوا صلاتهم تمامًا بالمجتمع، ولم تكن لهم طريق في تصوفهم سوى أنهم كانوا يمارسون الزهد أو التخلي عن الدنيا؛ مما يدل على سمة الصحراء وطابعها في نفوسهم. والزهد يتجلى في الواقع في قناعة البدوي الذي تقع ثروته دائمًا تحت رحمة مجاعة وقحط، أو غزو من القبائل المجاورة، وفي الكلمات التي نطق بها أبو طالب نفسه -بمناسبة خطبة (النبي) عن المتاع الذي لم يكن سوى وديعة تُستَردّ آجلًا أو عاجلًا- تتجلى رُوح الصحراء أكثر من روح الدير.

إن سلوك الحنفاء الصوفي لم يمتدَّ نحو الأخلاق المسيحية، أو الشريعة الموسوية، بل كان نظامًا فرديًا فطريًا بسيطًا، نجد مثاله الخلقي الصافي في أشعار قس بن ساعدة، فهو -على فرض

نصرانيتــه كما يقولون- لم يترك للتاريخ ســوى أبيــات رائعة تمثل عبقرية الصحراء الصافية.

وكان الطابــع الإبراهيمــي -فيما يبــدو- ظاهرًا بقــدرٍ في البيئة الجاهليــة، في ذلك العصر، إذ كان يظهر هنا وهناك حنيفيٌّ. ولكن هــذا الطابــع كان تقليدًا عربيًــا محضًا، لا يمتّ بصلــة إلى التفكير اليهودي المسيحي الذي كان تياره الروحي، قد نشأ قبل ذلك بزمن طويل مع الحركة النبوية الإسرائيلية الأولى، أي مع موسى.

وحتى في زمننا هذا، وبعد ثلاثة عشــر قرنًا من الثقافة الإسلامية التــي طبعت روحها على العقل العربي الصحــراوي، نجد أن الأدب الكتابــي (أدب الكتــب المنزلــة) لــم ينتشــر مطلقًــا؛ وكثيــر من المســلمين فــي شــمالي نجد ما زالــوا يجهلــون تاريخ هــذا الأدب اليهودي المسيحي.[٢٥]

وعلى هذا فليس من المنطق أن نفترض في الحنفاء معرفة أوســع من معرفة معاصرينا عن تيار الفكر، وتاريخ الوحدانية، فمن السهل أن نتصــور بــأي قوت زهيــد، وبأية أفكار مألوفة، وبــأي قصد عاديّ اعتزل النبــي ﷺ المجتمع بعد زواجه، تمامًا كما كان يفعل حنفاء عصــره. ومع ذلك فمن المفيد أن نوضــح أن الأحوال التي ذكرناها تكون أصدق في حالته بقدر ما كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فلم يكن ممكنًــا حصوله على أية معلومــات مكتوبة. وتلك مع ذلك ملاحظة مســهبة، إذ قد انعدم المصدرُ المكتوب نفســه في وســط هذا النبي الأمي كما سيتضح فيما بعد.

والآن، ما هي المعلومات التي لدينا عن عزلته خمسة عشر عامًا؟ إننا إذا نحينــا بعض التفاصيل المتصلة بحياتــه الزوجية والعائلية،

---

(٢٥) (رزوان Raswan) دراسة اجتماعية.

فلن ندري شيئًا مما يتصل بتنظيم حياته الروحية في ذلك العصر. فهل كان يُغرق في تأمل عميق في المشكلة الدينية يقوده نوع من إلهام الدعوة المستقبلة؟

لقد أجاب المستشرق الكبير (درمنجهام) عن ذلك بالإيجاب، ولكن هذه الإجابة فيما يبدو لنا لا تعدو أن تكون تخيلًا من المؤلف، لم يعتمد فيه -كما يظهر في تلك النقطة- على شهادة تاريخية غير قابلة للطعن والتجريح، وهي شهادة القرآن[٢٦]، فإن هذا الكتاب يصور لنا في رجعة إلى الماضي حال الفكر عند الرسول قبل الوحي، في قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ (القصص: ٨٦)

فهل معنى هذا إلا أنه لم يكن لديه أدنى أمل في أن يقوم بدور في دعوةٍ من أجله هو، لا قبل عزلته ولا خلالها، ومع ذلك فهذا هو المعنى النفسي للآية، الذي غابتْ أهميته التاريخية عن الأستاذ (درمنجهام)، مع أنه لم يَرْتَب مطلقًا في صحة القرآن التاريخية.

وفضلًا عن ذلك فيجب أن نذكر أن تفسيرًا كهذا ليس مرتبطًا إلا بشرط واحد ضروري وكافٍ، هو الإخلاصُ المطلق عند النبي ﷺ، وهذا على وجه التحديد هو هدف هذا القياس، لكي نرى في القرآن اعتمادًا على صفته التاريخية الأكيدة، مرآة للماضي، أو شيئًا أشبه بمرآة عاكسة يمكننا أن ندرك فيها - بطريق العكس- الأطوار المختلفة التي مرت بها الذات المحمدية خلال تاريخها، بحيث نرى في الآية المذكورة الصورة الصحيحة لحالة النفس عند (محمد) أيام غار حراء. وإذن فليس هنالك من سبب لأن ننسب (للصادق الأمين) نية مبيتة للتأمل في مشكلة ميتافيزيقية لحظة

(٢٦) باعتبار القرآن في هذا السياق مجرد وثيقة تاريخية.

تهيئه للانسحاب والعزلة بعد الزواج، ولسوف تدعم نتائج المقياس الحالي هذا الحكم المسبق. ومع ذلك فهناك نقطةٌ غامضةٌ هي أن المؤرخين المحدثين يعجبون من أن السيرة ليس لديها غير القليل من المعلومات عن هذه العزلة التي تعد مرحلة رئيسة -من الوجهة النفسية- بالنسبة لتاريخ الدعوة المستقبلة.

ولسنا نملكُ في الواقع غير القليل من التفاصيل عن هذا الموضوع، ولكن هذا لا يثير عجبًا، فإن التاريخ لا يستطيع إلا أن يتبع آثار نبي المستقبل في ذاكرة معاصريه؛ والواقع أنه قد توارى واختفى عن أعين الزمان، لكي يبقى خلال خمسة عشر عامًا معتزلاً مكة، أو معتزلاً غار حراء.

ونحن نجد في تحفظ التاريخ في هذه النقطة برهانًا على أن السيرة المتهمة أحيانًا بالمبالغة -على العكس من ذلك- على جانب كامل من التحوط والحذر، عندما تنعدم لديها التفاصيل التاريخية.

ونحن مضطرون لنقص هذه التفاصيل لدينا أن نلجأ إلى المراجع والوثائق النفسية التي يقدمها القرآن، يدفعنا إلى ذلك اطراد ذات النبي، وتشابه تصرفاتها خلال مراحل حياته جميعًا، منذ مشهد زواجه الذي أتاح لنا أن نجمع بعض المعارف الموضوعية عن تلكم (الذات). وكل ما في الأمر أنَّ هذا الرجل الذي اختفى من مسرح التاريخ خلال خمسة عشر عامًا، سيظهر على هذا المسرح خلال ثلاثة وعشرين عامًا لكي يعيش ويفكر ويتكلم ويعمل في رائعة النهار، أكثر من أي وقت مضى.

والواقع أننا نعلم فيما يتصل بالمرحلة القرآنية كلَّ التفاصيل، حتى اليسير منها عن حياته الزوجية، بفضل هذه السيرة التي كانت صامتةً منذ هنيهة، فمن الممكن أن تتجلى الخطوط الأساسية لعزلته، من مراجع حياته اللاحقة. والرسول ﷺ نفسه هو الذي

أشـار فيما بعد إلى طريقته في اسـتخدام وقته، فهو يقول في حديث له: «وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له ساعات؛ سـاعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسـب فيها نفسه، وساعة يتفَكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلـى العاقـل ألَّا يكـون ظاعنًـا إلا لثلاث: تـزوُّد لمعـاد، أو مرمَّة لمعاش، أو لذة في غير محرم».[27]

فإذا نحن قررنا اطراد الذات المحمدية، فها هو ذا برنامج الحياة المرسوم الذي يجب أن يتبعه، ولا سيما في مرحلة عزلته.

وفضـلًا عن ذلك، فإن العـادات تثبت بخاصة لدى المراهق لكي تنعكـس بالتالي على جميـع حياته. وكذلك الحـال على ما نعتقد فيما يخص النبي، كما تدل عليه ملاحظة زوجه عائشـة حين أثارها الاهتمام بصحته، من قيامه الطويل بالليل في صلاة النافلة[28]، لقد كانـتْ حقًا عادةً ثابتةً عند النبي منـذ زمان عزلته. وعليه، فإذا كان النبـي يخصص جانبًا كبيرًا من وقتـه للصلاة، بينما تلحّ عليه هموم التفاصيل المادية لرسـالته، فلقد كان عنده من الفراغ ما يسـمح له بالاعتكاف عندما لم يكن لديه ما يشغله من تفاصيل الحياة المادية والعامـة. فلا موضع إذن للدهشـة حيث لانجد غيرَ قليلٍ من الوثائق عن هذه الحقبة من حياته، التي كانت بصفة موضوعية بدون تاريخ. ولـم يصل صدى هذه العزلة إلى العالم الخارجي، إلا نحو نهاية هذه الحقبة، مع الخبر المثير لظهور النبي المنتظر.

---

(٢٧) رواه ابـن حبان في صحيحه، والحاكـم وقال صحيح الإسناد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. (المترجم)

(٢٨) في روايـة البخـاري: «وقالت عائشة رضـي الله عنها: كان يقوم حتـى تَفَطَّر قدماه (تتشقـق)»، وفي حديث آخر عن المغيرة رضي الله عنه أنه قال: «إن كان النبي ﷺ ليقوم أو ليصلي حتى ترمّ قدماه أو ساقاه، فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا». (المترجم)

العصر القرآني

المرحلة المكية:

إن محمدًا ﷺ الآنَ في الأربعين من عمره، إن الستار يرتفع من جديد عن تاريخه، ولكنا نجده في أزمة أدبية عميقة؛ فمنذ خمسة عشر عامًا لم يكن محمد ﷺ سوى حنيفي بسيط يقسم وقته حسب كلامه هو، بين عبادة الله والتأمل في جميل صنعه. إن السماء العميقة التي تغطي بقبتها الزرقاء المنظر الملتهب لجبل النور ما تزال تجتذب مقلته، كما كانت تجتذب مقلة الطفل أمام فسطاط مرضعته. ولكن محمدًا ﷺ ليس عقلًا منهجيًا يبحث عن نظرية في الكون واتساقه، ولا هو فكر مضطرب يبحث عن طمأنينته، فإن طمأنينته متوافرة لديه دائمًا، وخاصة منذ اعتزاله، فهو يؤمن بإله واحد هو رب إبراهيم.

فمن الخطأ فيما يبدو لنا أن يرى النقد الحديث -ولا سيما الأستاذ (درمنجهام)- في هذا العصر مرحلةً من البحث والقلق، أي نوعًا من إرادة التكيّف وتخلّق الفكرة عند النبي، بل على العكس تمامًا تبرهن وثائق العصر على أن المشكلة الغيبية لم تسوِّرْ ضميرَه فقد كان عنده حلها، وجزء من هذا الحل إلهامي وشخصي. وجزء آخر موروث لأن إيمانه بإله واحد إنما يأتيه من الجد البعيد (إسماعيل).

هذه الملاحظة أساسية لدراسة الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات المحمدية كما تصورها لنا في الواقع تفاصيل التاريخ.

ويحسن أن نبين خاصة أن أي اهتمام شخصي لأي تدخّل عند هذا المتأمل المعتزل الذي لا تعنيه المشكلة الدينية، إنه بحث عن مجرد سلوك أخلاقي، على طريقة نساك الهند، أو متصوفة الإسلام،

أكثر من أن يبحث عــن دعوة؛ فبين ذاته والواقع الغيبي الذي يتأمله لا يمكــن أن نقرر -فيما يخص هذا العصر علــى الأقل- رباط فكرة مقصــودة، وليس هذا مجــرد تقرير، بل هو بيان لحالــة هذه الذات المتجاوبة مع سائر الظروف النفسية الأخرى، كما تتراءى في سيرة النبي وفي شهادة القرآن على ماضيه.

ومــع ذلك في نحو حوالي الأربعين نجده وقد شــمله الهمّ والألم أيضًا. إنه يشكّ! إنه لا يشك في وجود الله، فإنَّ ثقته فيه لم تتزعزع أبدًا. ولكنه يشكّ في نفسه هو! فكيف، ولماذا ورد هذا الشك على نفســه؟ لماذا يجد الآن ظلَّ شــخصه في حقــل تأملاته؟ ولماذا يجد طيف ذاته يتــوارد على أعماق نظراته الدينية، حتــى لَيصبحُ تقريبًا فيهــا نقطة الارتكاز؟ والســيرة المهتمــة بالتفاصيــل التاريخية عن حياة النبي ﷺ لا تقدِّم أية معلومات عن هذه الحالة النفسية المهمة أيضًــا. ولكنْ لدينا مع ذلك في الآية المذكورة من قبل، وفي تعقيبه علــى خديجة عندمــا فاتحته في أمر الزواج، الإجابة على المشــكلة التي تواجهنا بها حالة النفس، التي نجده فيها في نهاية اعتزاله.

وعلى الرغم من أن الآية وتفصيل الســيرة المذكورة لا يفســران لنا ماهية الشــك المحمدي؛ فإنهما يشــهدان بأن هذا الشــك ليس ناتجًــا عن أملٍ أهــوج، أو جنونٍ بالذات، أو تضخــم في تلك الذات عند (محمد) عليه الصلاة والســلام. فنحــن مضطرون إلى أن نرى في هذا الشــك نتيجة لحالة شخصية عارضة، وجد فيها النبي نفسه فجأة أمام مبادئ شــعور، وأمام استشعار لبعض الأشياء الغريبة تمسّ من قريب مصيره الخاص.

فإلام يُعزَى هذا الإحساسُ الذي يُطوِّف الآن في أنحاء نفسه، وهو يخز بصــورة مؤلمة طبيعة فكره الموضوعيــة؟ هل كان ذلك مجرد

حركة للاشعور، أو إلهامًا بحلّ قريب وغير عادي للمشكلة؟

إن بعض الفصائل الحيوانية تُلهَم الطوارئ والاضطرابات التي تصيب مساكنها عما قريب، فهذا النمل الأمريكي يغادر مساكنه قُبيلَ اندلاع الحريق فيها بليلة، وفي جنوب قسنطينة نوع من الحيوانات القارضة يبرح أرضه في مسارب الأودية قبيل الكوارث الطبيعية. فهل كان عند النبي ما يشبه هذا الإلهام، أي التنبؤ بالظاهرة القرآنية التي ستلهبه وتغمر وجوده كله؟ فلو قلنا إن ذلك من عمل اللاشعور، فيجب أن نطبق هذه القاعدة على تفسير مادة القرآن كلها وتفسير فكرته المتصلة، كما نفسر بها أيضًا أعراض الظاهرة وطوارئها عند النبي، ولكن هذا -كما سنشير إليه فيما بعد- ليس أبدًا ممكنًا.

ومع ذلك فإن النبي سيكاشف زوجته الحانية بهمومه، ويشكو لها بمرارة، إذ يظن به الجنونَ والمسَّ، ويرى أنَّ سحرًا مشئومًا قد أضرَّ به. ولكن خديجة الفاضلة تواسيه وتهدئ روعه قائلة: «والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وفي هذه العبارات التاريخية تظهر لنا بطريقة لا تحتمل الجدل فكرة «الإله الواحد» تشيع في الوسط العائلي لمحمد ﷺ حتى قبيل دعوته.

وهذه الملاحظة تتيح لنا أن نستنبط من مراجعنا اقتناع محمد ﷺ الشخصي في هذه النقطة خلال اعتزاله، وهي تضيف تفصيلًا أساسيًا للصورة النفسية التي نرسمها له. وعلى كل حال فإننا نجد النبيَّ بعد هذه التهدئة يستأنف طريقه إلى عزلته. ويهاجمه الشك من جديد، ويسيطر عليه الاضطراب الشديد، الذي يطبع أحواله النفسية في ذلك العهد، وهو يحتاجه الآن أكثر من ذي قبل؛ لأنه

يُشعِر (بحضورٍ) أشبه بظلّ يطوف حوله.

إنــه يخــرجُ من عزلتــه، يذرع تلــك الــدروب الملتهبــة في جبل النور، وهو يضيق بذلك المجهول الذي يشــعر به معلقًا في نفســه، ولا حــول ولا قوة إزاءه؛ هاهو ذا مُشــرِفٌ على وادٍ، يرى مخرجًا من مأســاته في أعماق الهاوية، فيكاد يستَســلم لفكرته المتغلبة عليه، ويخطو خطوة إلى الأمام، ولكنَّ صوتًا أســرع من إيماءته يوقفه: «يا محمد، أنت رســول الله حقًا» فيرفع رأســه ليرى الأفق مشــعًا يتلألأ نــورًا، فينقلــب مذهولًا محيــرًا، دون أن تزايل الرؤيــة ناظريه. إنها فــي كل مكان.... وفي جميــع الأركان.... فيرتعد منها فزعًا حتى يــذوي إلى الأرض، وحين يُفيــق يعود إلى مكة، حيــث يجد هنالك موضعَ ســره العطوف، فتفاجَأ بمنظره المحزن وبحالته المحمومة، وهو الذي تراه دائمًا مُهتمًا بنفســه، لا يُغفِل أيَّ تفصيل في هندامه، هاهو ذا بشعره الأشــعث ووجهه الممتقع وملابسه المغبرة، ولكن خديجة الحانية تتغلب على جزعها وترعى زوجها، وبكلمات حانية رقيقة تُدخِل السلامَ إلى نفسه الذاهلة، فيأخذ طريقه إلى جبل النور. وهاهــو ذا الليل يخيــم على عزلته في غار حراء، حتــى إذا نام أحسَّ بحركــة في لا شــعوره توقظه، إنه يشــعر بحضور، وهــو يلمح أمام عينيه الآن رجلًا متشــحا بلباســه الأبيــض. إن المجهول يقترب منه ثم يخاطبه قائلًا:

- «اقرأ».

- ما أنا بقارئ، قالها وهو يحاول الابتعاد عنه، والهرب من ذلك الذي يأخذه فيغطه حتى يبلغ منه الجهد، ثم يرسله قائلًا:

- اقرأ... فيجيب محمد مرة أخرى:

- ما أنا بقارئ.

فيكرر مرة ثالثة ذلك الشكلُ الروحاني الذي سيكون منذ الآن الزائر الملازم للنبي :

- اقرأ . . .

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق : ١ - ٥)

كانت هذه الآية بالنسبة للنبي ، وللتاريخ ، المرةَ الأولى التي تظهر فيها (الظاهرة القرآنية) التي ستضم بين دفتيها الثلاثة والعشرين عامًا الأخيرة من حياة النبي . ومن هذه اللحظة أصبح لدى النبي الأمي شعور « بأن كتابًا قد طبع في قلبه »[٢٩] ، ولكن لم يكن له أن يتصفحه كما يشاء ، ولا أن يطلع عليه كما يهوى ، إذ إنه سيوحَى إليه كلما دعتْ حاجة الرسالة . ولقد يتأخر الوحي ويبطئ ، حتى عندما تلح إحدى الحالات العاجلة : ولتكن حالة اتخاذ قرار ، أو سن تشريع لمناسبة معروضة على النبي .

ولنذكر إحدى هذه الحالات ؛ ففي بدء الرسالة ، وعلى وجه التحديد بعد الوحي الأول الذي رويناه ، انتظر النبي زمنًا طويلًا ، أكثر من عامين ، قبل أن يرى للمرة الثانية زائره الغريب ويسمع صوته . فهو يعتقد أنه إما أن يكون قد خُدع في جوارحه ، وإما أن القدرة قد تخلت عنه ، تلك التي اعتقد حينًا أنها هي التي تقوده .

هذا القلق مؤلم لنفسه ، وإنه ليتسرب إليها كأنه حية تطوق فكره ومشاعره ، فتحطم بضغطها طموح هذه النفس المتأصل إلى اليقين الصادق . ومرة أخرى : لحظات مؤلمة ، ودقائق مؤثرة بالنسبة لمحمد ، ذلك الذي يبحث مستيئسًا في نفسه وفيما حوله ، عن

---

(٢٩) في السيرة الحلبية ج١ ص٣٢٨ نص يوهم بهذا المعنى (فكأنما كتب في قلبي كتابًا) ويحتمل أن يكون معناه على المصدرية. (المترجم)

المنبـع الخفي الذي تدفقت منه الآيات الأولى من القرآن، وإنه لدعاء حزين لنفس موجعة، وضمير أضناه القلق، دعاء إلى صوت لا يجيب، أو لا يريد أن يجيب، فقد التزم الصمت خلال أكثر من عامين.

وإن فكـر (محمد) ﷺ ليحاول مناقشـة حالته الفريدة، دون أن يجد لها تفسيرًا، فهو يغرق في الإعياء، وقد هدّه ما يعانيه من التوتر العصبـي، لقد كان يتفانى كأنه شـيء خامد سـقط في النوم. ولكن خديجة -الملاك الحارس- كانت تسـهر عليه. وينام (محمد) بعد نوبـة من نوبات الانهيار العميق، وكانـت زوجه بكلماتها الممتلئة بالحنـان الأمومي قد كفكفت منذ لحظـات أزمته، بعد أن دثرته في عباءته، وطلبت إليه أن يسـتريح. نام نوم الطفل الذي أعياه البكاء، وملأ قلبه الشجن، فهدأ بدوره قلق الزوج العطوف، حين لمست من النائم أنفاسـه الهادئة، فخرجت بخفة حتى لا توقظه. ولكن صوت حراء يرنّ فجأة في أذنَيْ النائم فيهب كأنما مسته الحمى...

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

(المدثر: ١ - ٣)

لقـد أصمّه النداء وأضناه مرة واحـدة؛ إذ إن هذه المباغتة جعلته يـدرك فجـأة أهمية الأمر الـذي تلقاه ولم يكن ينتظـره. لقد وجدته خديجة جالسًا، غارقًا في تأملاته، فدفعتها الدهشة من استيقاظه إلى أن تسأله: «لم لا تنام يا أبا القاسم»؟ فيجيبها...: «انتهى يا خديجة عهـدُ النوم والراحة، فقد أمرنـي جبريلُ أن أُنذِر الناسَ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته، فمَن ذا أدعو؟ ومَن ذا يستجيب؟....».[٣٠]

(٣٠) هــذا الخبر غير موجود في كتب الحديــث (ف) وفيما لدينا من مراجع السيرة. وإن كان قــد ورد في كتاب (حياة محمــد) وفي كتاب (أزواج النبي) دون أن ندري لمؤلفيهما مرجعًا. (المترجم)

وكما حلت الأزمة الأولى عند النبي بصورة غير متوقعة، فإن حل هذه الأزمة يبدو أنه قد فاجأه أكثر من ذي قبل، وبعبارة أخرى أرهقه، وإن مفاجأته في المرة الأولى للوحي، وعناءه وعجزه هذه المرة أمام هذا التكليف غير المتوقع، الذي تلقاه في صورة أمر، ليسجلان في نظرنا حالتين نفسيتين ضروريتين خاصة لدراسة الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات المحمدية.

وبوسعنا أن نذكر أن موقف هذه الذات بين الأزمتين وبين حلَّيْ المشكلة، لم يكن مطلقًا مطبوعًا بأمل القيام بدعوة، ولكنه كان يبحث فقط عن فضل لمسه من الله منذ الوحي الأول. ولنا أن نذكر أيضًا أنه فيما يتعلق بفترة الوحي كان جهدُ محمد اليائس مجرد محاولة لاسترجاع ما فاته من فضل الله.

ونحن نرى أن هذا الجهد يؤكد في الواقع بصورة قاطعة استقلال الظاهرة القرآنية عن ذات موضوعنا (النبي). وما كان لنا بداهة أن نقرر أن الحل الثاني للأزمة النفسية يمكن أن يتأخر لو كان مصدره هو (اللاشعور)، لدى إنسان لم يسعَ إلى إخماد الظاهرة وكبتها في نفسه، بل إنه على العكس قد وجه كل إرادته وكل وجوده لتيسير ظهورها.

هذه التفاصيل النفسية تبرز تمامًا العزمَ النهائي عند محمد على قبول دعوته، بوصفها تكليفًا يأتيه من أعلى. إنه يقبلها في الواقع، ولن يتخلى عنها أبدًا، حتى ولو تعرض فيما بعد لسخرية أطفال مكة ولو آذاه وأنذره، وفتك به سادة قريش كأبي لهب وغيره من المشركين. لا شيء سيرغمه على التخلي عنها، لا المصالح المضيعة لأسرته، ولا توسلات عمه الوقور أبي طالب، عندما ضغط عليه أشراف مكة كيما يضع حدًا (لفضيحة) ابن أخيه، ولا

اقتراحهم عليه أن يتولى أسـنى منصب في إدارة المدينة، هذا كله لا يحـوّل الرسـولَ عن طريقه الثابت إلى الأبد منـذ حل الأزمة الثانية. وعندمـا جاءه عمـه لكي يفاتحه في أمر قريـش، واضعًا تحت نظره الإجراءات القاسـية التي رسـموها في حالة مـا إذا رفض عروضَهم، أجابـه وقد دمعت عيناه: «والله يا عمّ لو وضعوا الشـمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه، حتى يُظهِره الله أو أهلك دونه».

وأمام هذه العزيمة الخارقة لم يتمالك ذلك العجوزُ إلا أن يطمئن ابـنَ أخيه بحمايته حتى النهاية. فقررت قريش نبذ (محمد) وذويه من المجتمع، وكتبوا بذلك صحيفة عُلقتْ في جوف الكعبة.

ولقـد حرمت الأسـرة المفجوعـة بهذه المقاطعة مـن كل علاقة مع المدينة، حتى من التعامل الأدبي، أو الزواج من الأسـر الأخرى. وتذكر السـيرة أن هذا الميثاق قد أكلتـه الأَرَضة، وأن النبي قد رأى ذلك منامًا قبل حدوثه، وبذا راجعت قريشٌ مسلكها، وسحبت قرار المقاطعـة. وأيًا ما كان الأمر، فإنَّ هـذه الصحيفة الظالمة القاطعة، كانت قد سـقطت قيمتها بمرور الزمن، وعاد بنو هاشـم والمطلب مـن جديد إلى مكة بعد محن طويلـة مهلكة. فعاد النبي يبلغ دعوته في صحن البيت الحرام، ولكن سادة قريش كانوا قد دبروا (مؤامرة صمت) حول دعوته، فكانوا يمنعون الناس من الاسـتماع إلى تلاوة القـرآن. ورأى النبـي ﷺ أن الناس لا يُقبِلون علـى دعوته، فقرر أن يحملهـا إلـى مكان بعيـد، إلى الطائـف، لكنه لاقى هوانًا أقسـى، ومعاملـة شـريرة في سـبيل مهمتـه، فلقد رمـاه النـاس بالحجارة، وبثوا الأشـواك في طريقـه، وأغروا بـه الأطفال والعبيد يسـخرون ويسـتهزئون، فلجـأ (الداعية) إلى حائط يحتمي بـه، دامِي القلب

من غباوة القوم وشراستهم، ولكن نفسه كانت لا تعرف الحقد؛ لقد كان كل ما فعله أن رفع عينيه إلى السماء، وهو يتمتم بدعاء كله حرارة وخشوع وحب، لا يمكن للنفس الإنسانية أن تصرّح بها لحظة كرب كهذه:

«اللّهمّ إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى عدوّ يتجهّمني، أم قريب ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، لكن عافيتك أوسع لي؛ أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت من أجله الظّلمات، وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من أن تحلّ بي غضبك، أو تنزل عليّ سخطك، لك العتبى حتّى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلّا بك». وعقب هذه الصدمة القاسية رجع النبي إلى مكة، ولكنّ محنة أخرى كانت تنتظره هناك. إن الموت ينتزع منه حاميه الوحيد عمّه أبا طالب.(٣١)

وسيترك لنا مشهد النزع والاحتضار تفاصيل تاريخية ثمينة بالنسبة لصورة (رسول الله) النفسية في هذه الحقبة، فلقد كانت هذه في الواقع بالنسبة له أخطر لحظات مهمته التي اختلط فيها الحنوّ البنوي بهمّ النبي لإنقاذ نفس عزيزة، ترفض النجاة في صلف ومكابرة، فإن ابن الأخ ليهوله أن يموت عمه مشركًا. وهي لحظة مفزعة له، إذ يتمثل في شخصه ويتحدث على لسانه النبي الذي يتمنى أن ينقذ من كان له نعمَ الأبُ. هاهو ذا صوتُ المحتضَر

---

(٣١) في رواية ابن الأثير نصّ على أن خروج النبي ﷺ إلى ثقيف بالطائف، كان بعد وفاة عمه أبي طالب، وقد اشتد به الأذى، وكذلك نص ابن الأثير على أن موت السيدة خديجة كان قبل موت أبي طالب بأيام تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسين يوما، على اختلاف الروايات، كذا في إمتاع الأسماع (ص: ٢٧). (المترجم)

العجوز يتقطع في الشهقات الأخيرة، فتضرَّع إليه دون جدوى أن يقر بالإسلام، ولكنه يستجمع قواه المتفانية ليقول: «والله يا بن أخي لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعًا لأقررتُ بها عينَك، لِما أرى من شدة وَجْدِك».[٣٢]

وانتاب ابنَ الأخ ألمٌ مبرحٌ، وهو يرى عمه العزيز يغادر الحياة دون أن يغادر وثنية آبائه. هذا المشهد العائلي الرهيب، بين عجوز مشرف على الموت، وابنٍ شجاه الهمُّ والقلقُ، وغمرته اللهفةُ والإشفاق، يكشف في إحدى اللحظات الحاسمة عن إخلاص النبي المطلق. ولكن خسارة أخرى أشد إيلامًا، تحدث قريبًا لتغمره حزنًا، فبعد قليل فقد (محمد) (صاحبته الحانية الفاضلة). هذه الفجيعة المزدوجة مسته وأثرت عليه في أعمق مشاعر الإنسان، وأصابته بالقدر نفسه في مصلحة دعوته، فقد فقَد بفقده عمه وزوجه العضد الأدبي والمادي الذي كان يؤيده في مكة، وفضلًا عن ذلك فإن إقامته ستصبح في الحال مستحيلة، فإن قريشًا التي كانت مهابة أبي طالب تفزعها قد انطلقت الآن من عقالها، ورأت أن الوقت قد حان لتدبر مقتل النبي لإنقاذ مصالحها السياسية، وامتيازاتها التجارية بين القبائل العربية.[٣٣]

لقد حِيكت مؤامرةٌ، تشترك فيها القبائلُ جميعًا، حتى لا يقع دم الضحية على عاتق قبيلة بعينها.

المرحلة المدنية

بينما كانت مكةُ تتآمر ضد رسول الله ﷺ، كانت المدينةُ على

(٣٢) السيرة الحلبية ج١ (ص: ٢٥٠). (المترجم)

(٣٣) يذهب بعض ذوي الرأي إلى أن دافع المؤامرة كان أعمَّ من هذا؛ إذ كان في جوهره دفاعًا عن عقيدتهم التي سفهها الدين الجديد. (المترجم)

العكس من ذلك تهيئ له استقبالًا حماسيًا حافلًا. وكانت بيعة العقبة -ميثاق النبي مع رجال المدينة الملقبين منذ ذلك الحين بالأنصار- وهمةُ النقيب مصعب بن عمير، الذي عَرف كيف يكسب للإسلام كثيرًا من عواطف يثرب، كان هذان العاملان هما اللذان مهَّدا للهجرة.

وفي إحدى الليالي، بينما كان المتآمرون يحيطون ببيت النبي، خرج تحت أعين أعدائه، دون أن يروه -كما جاء في الخبر- ولقد نجح في الوصول إلى ضواحي مكة برفقة صاحبه أبي بكر، فلجأ إلى (غار ثور)، حيث كان على الدليل الذي اتفقا معه أن يلحق بهما مع نوقه حاملًا المئونة في يومين أو ثلاثة لتضليل المطاردين، ولكنَّ الرجفة كانتْ قد أخذتْ مكةَ ساعةَ رحيل المهاجرين، فقامت قريش على آثارهما. إن من يعرف حياة الصحراء، يدرك تمامًا ضآلة الفرصة التي كانت أمام النبي وصاحبه للنجاة، ولقد بلغ القافَة فعلًا مدخل الغار، لكنهم لم يتجاوزوا عتبته، وتفسر السيرة هذه الحادثة الغريبة بتدخل معجز لحمامة ورقاء ولعنكبوت واهن. وأية كانت وجهة الأمر، وحتى لو كانت تعليقات السيرة قد أمكنها أن تتدخل في تفسير هذا الحل العجيب، فإن القيمة التاريخية للحادثة ليست بأقل ثبوتًا، فهي -في الواقع- مقررة في أوثق مصادر ذلك العصر، وهو القرآن؛ وقد ورد الحادث صراحة في قوله تعالى:

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾

(التوبة: ٤٠)

وواضح من هذا أن القدر قد يمهد سبله بطريقة غير مفهومة أحيانًا، تحير الخواطر والعقول. ونحن نرى لفائدة دراستنا هذه أن نهتم بالتفصيل النفسي في هذه الحادثة التاريخية، ذلك التفصيل الذي تدل عليه سكينة النبي، حين كان يطمئن رفيقه، في هدوء يفوق طاقة البشر، بينما الخطر والموت على قيد خطوات؛ وإن إخلاص النبي الذي نؤكده في هذا المقياس الأول بوصفه شرطًا ضروريًا، لاستخدام الآيات القرآنية وثائق نفسية ثابتة، هذا الإخلاص يتجلى هنا بوضوح وبصورة روائية في تلك اللحظة الحاسمة.

وأخيرًا، فحينما انسحب المطاردون استطاع المهاجران أن يأخذا طريقهما إلى يثرب موطن الأنصار، الذين أعدّوا لهما استقبالاً عظيمًا، وغيَّرت مدينة (يثرب) اسمها فأصبحت (مدينة الرسول) كيما تخص نفسها تمامًا للدعوة والداعية.[٣٤]

وعلى أسطح المنازل، ترقَّب النساءُ والأطفال مقدمَ المهاجرَيْن العظيمين، واستهلوا العهد الجديد، عهد الهجرة. بأنشودة، ترددها منذ ذلك الحين أجيال الإسلام:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاعْ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا ... جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعْ

وبينما كانت هذه الأنشودة تنطلق من كل مكان، كان المهاجرون والأنصار يعقدون فيما بينهم أواصر الأخوة الإسلامية، أساس المجتمع الجديد والحضارة الجديدة. ولكن، كم من المشكلات

---

(٣٤) أطلق رسول الله ﷺ على يثرب (طابة أو طيبة) حين نزلها في الهجرة، وأطلق عليها (مدينة الرسول) في المناسبة نفسها وما تلاها (معجم البلدان لياقوت ج٢ ط بيروت). (المترجم)

التشريعية والدينية والسياسية والعسكرية سيواجهها هذا المجتمع الناشئ؟ إنَّ حل هذا الحشد من المشكلات هو الذي سيُظهر فيه النبي ﷺ عبقرية ذات رحابة لا مثيل لها، مستهديًا بالوحي الذي يجيء حاملًا دائمًا الشعاعَ العلوي والكلمة الأخيرة. وسيكشف (الرجل) عن ذكاء عجيب، وعن حكم على قيم الأشياء، وعلى نفسية الرجال منزَّه تقريبًا عن الخطأ، كما يكشف عن إرادة لا يعتريها الوهن. لقد تتبعنا حتى الآن خطواته داعيةً فحاولنا أن نفهم حركات قلبه، وخلجات نفسه، وأن نكتشف في إشاراته وفي دعوته الدلائل الناصعة على خشوعه وإيمانه وإخلاصه المطلق.

وإذا كانت المرحلة المكية في جوهرها عهدًا روحيًا، هو عهد النبي الداعية الذي يرشد المصطفَيْن الأخيار، فإن المرحلة المدنية استمرار للمرحلة الأولى، ونتيجة زمنية لها في وقت واحد، فالنبي والقائد سيتحدان الآن في ذات واحدة تدعو وتقود جموع المؤمنين. وإنه لمن الواجب حقًا أن يتبع فن قيادة الجماهير ما يتصل بنفسية الفرد، فإن مشكلات مجتمع ما لا يمكن أن تُحَلَّ بالأسلوب الرائق الرشيق فحسب؛ ولذلك فإنَّ الرسول سيتيح لنا أثناء شغله في حل تلك المشكلات جميعًا أن نكمل صورته النفسية بمظهر عقلي؛ إذ عندما يضطرم نشاطه يمكن أن نفهم ألوان فكره، وأن نقوِّم نسيج إرادته، وأن نقدر قيمة حكمه على الآخرين وعلى نفسه أيضًا.

وإنه لزعمٌ غريبٌ أن نحاول الإحاطةَ بجوانب هذا المظهر العقلي جميعًا، فذلك يستلزم أن نلم بتاريخ العبقرية الفذة كله في الحدود الضيقة لهذا الفصل. بل إننا سنقتصر على أن نضع بعض المعالم التي تؤدي إلى النتيجة المقصودة من هذا المقياس. سيكون شغل النبي الشاغل بالمدينة أن يقر فيها السلام، ويخلصها من خصوماتها

الداخليــة، ويصلح ما بين الأوس والخــزرج؛ لتنظيم دفاع فعال ضد الأعداء في الخارج: (قريش). إن ساعة الجهاد ستؤذن عما قريب. ولقــد كان هذا مثار دهشــة وعجــب لدى النقــاد المحدثين، فهم لا يفهمون أن (الداعية) يدعو هكذا إلى حمل السلاح، ولكن إذا كان النبي قد حمل السيف فإنه كان يعلم جيدًا أن مكة لن تُلقِيَ السلاحَ، وسيعطيه التاريخُ على ذلك البرهانَ القاطع.

ولا مجال هنا لأن نعقد موازنة بين المســيحية والإســلام في هذه النقطــة، فإن الظروف التاريخية ليســت واحدة، إذ تواجه الأولى من الداخــل دولة منظمــة تحطم أجهزتها، على حين أن الإِســلام يواجه دولــة منظمة نوعًا ما من الخارجِ هــي مكة، فكان عليه أن يختار بين أن يحطمها أو يتحطــم، وفضلًا عن ذلك فإن هذه الظروف يفرضها مجرى الحوادث نفسه إذ إن الجهاد يعد من الناحية التاريخية نتيجة للهجرة. هذه الظاهرة نفســها قد حدثت في تاريخ اليهودية، عندما واجه بنو إســرائيل بقيادة موســى ويوشــع من الخارج، دولًا منظمة على شاطئ نهر الأردن.

فالرســول إذن ســينظم صفوفه مــن أجل الصراع المســلح الذي ســيفتح له أبواب مكة في الســنة الثامنة من التاريخ الجديد، ولكن كــم ســيعترض للدعوة من عقبــات قبل هذا الموكــب العظيم الذي يدوّخ، يوم دخول المسلمين مكة، ذلك أبا سفيان؟ إن مجموعة من الأسماء المهيبة ستدوّي منذ ذلك الحين في أركان التاريخ العالمي: بدر... أحد... الخندق... حُنين.. لســوف تَعرِض الملحمةُ آنذاك على شاشــة التاريخ مجموعةً من الأحداث الأســطورية، حتى كأنها رواية ســحرية. هاهو ذا حُلم (آمنــة) القديم، عندما كانت تهز بين أحضانها ثمرة أحشائها، وعندما كانت يخيل إليها أنها تسمع صهيل

الخيل وعَدْو الفرسـان وقعقعة السلاح، هذا الحلم القديم سيتحقق اليـوم على صفحة الواقع. وفي هذه الملحمة سـيتدخل القائد دائمًا لكي يفصل في حالة دقيقة، ولكي يتخذ قرارًا سياسيًا مهمًا، ولكي يضع خطة استراتيجية، ولكن النبي هناك دائمًا، يشرف على أعمال القائـد، ويُمضي قراراته من وجهـة نظر دعوته، التي تخلع على كل تفصيل في هذه الملحمة الطابع الروحي الضروري الذي ينسـبه إلى الله. وسـنجد (محمدًا) عندما سـتدق سـاعة بدر، بعد أن يكون قد اتخـذ أهبته الحربية الكاملة، نجده وقد شـعر بخطورة اللحظة التي سـتقرر مصير الإسـلام، وقـد رأى التفوقَ العددي لأعدائه بالنسـبة لحفنـة الرجال التي يقودها، نجده يرفع عينيه إلى السـماء: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض، اللهم أنجز ما وعدت». وهـذه الكلمـات البسـيطة تـدل بوضوح علـى أن (بدرًا) ليسـت كمعركة (كان)[٣٥] أو (استرليتز)[٣٦]، أو (سنغافورة)[٣٧].

ولقد كانـت هذه الملحمة تتحـرك بعبقرية (محمـد) القادرة، وإرادته الخارقة، متتبعة وثباته من نصر إلى نصر.... حتى حنين. وإن عمق آرائه ليحيّر أحيانًا صحابته أنفسـهم، فإن أول عمل دبلوماسي أمضاه مع مبعوثي مكة، سـيكون بالنسـبة لبعـض الصحابة موضع دهشـة ومبعـث عار تقريبًا، فلقد جاء الرسـل من مكـة لكي يصلوا مـع النبي إلى أن يسـلمهم من وقت توقيـع المعاهدة كل مكي يأتي

---

(٣٥) معركة سحق فيها القائد القرطاجني هانيبال الجيش الروماني مُنزِلًا بذلك الرعبَ في قلب روما في القرن الثالث قبل الميلاد.

(٣٦) معركة اكتسح فيها نابليون الجيش النمساوي عام ١٨٠٤م.

(٣٧) معركة تم فيها للجيش الياباني بعد هجوم هائل في شبه جزيرة مالقة استسلام القوات الإنجليزية التي كانت تدافع عن هذه القلعة عام ١٩٤٢م. (المترجم)

هاربًا إلى معسـكره، إذ إن كثيرًا من المؤمنين المستضعفين بمكة سـيهربون من اضطهاد قريش، ويجيئون ليَنشُـدوا الأمان في مدينة الأنصـار. ولقد وقَّع النبي ﷺ المعاهـدة التي طُبقتْ في الحال دون أن تكـون ذاتَ أثر رجعي، وبدا هذا النـص العجيب وكأنما قد أتاح لمكـة نصرًا دبلوماسـيًا، تذمَّر منه المسـلمون ورأوه فضيحةً لهم. وفـي اللحظة التـي كان المبعوثون يتبادلون فيهـا وثائق التصديق، تقدَّم هاربٌ مكي إلى المعسـكر الإسلامي، فطالب به رسل مكة في الحـال، ولـم يملك النبي إلا أن يسـلم بالواقع، مثيـرًا بذلك ذهول صحابتـه، وأعيد الأسـير، ولكنـه أثناء الطريق غافـل القوم وهرب منهـم، وأوى إلى مكمن احتمى به، وبعـد قليل انضم إليه كثير من إخوانـه الذين هربوا مثله من الاضطهاد، وإذا بهؤلاء الخارجين على القانون قد نظموا على الطريق نهبًا لقوافل مكة، فشَلُّوا بذلك، وفي زمـن قليل، تجارةَ المدينة القرشـية كلها، حتى إنهـا رأت أخيرًا أن تتوسـل راغمةً إلـى النبي ليقبـل المؤمنين الهاربين إلى معسـكره. وجملةُ القول: إن النبي قد ظفر بجميع امتيازات المعاهدة التي بطل منها الشرطُ الوحيد القاسي، أبطله المنتفعون به أنفسهم.

وهكذا بينما كان (النبي) يقود في سـبيل الله (فيلق) الشـهداء الذيـن اتبعـوه، كان (القائـد) يلقن أبطـال ملحمته أسـمى دروس الدبلوماسـية والاسـتراتيجية الحربية، جاعلًا من المسـلمين بهذا التوجيه المزدوج أعظم الفاتحين نزاهة، في الوقت الذي يعدون فيه أكمل المستنيرين في التاريخ.

لم يصنع الرسـول نفوسًا مؤمنة تقية فحسب، وإنما صنع عقولًا مسـتنيرة. وطرق إرادات فولاذية، إنه ينمي الشـعور بالمسـئولية، ويشـجع المبادأة في كل إنسان، ويعظم الفضيلة في أبسط صورها،

وإن التأسّـي والمسـارعة لهما رائد كل عضو فـي الجماعة، إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير، بحسب أمر القرآن.

وعندما قاد النبي أصحابه إلى (تبوك) كانت نيته تبدو أبعد كثيرًا من هـذا الهدف المتواضع، فهو يعبر الصحـراء العربية، في حَمارة القيـظ مضطرًا رجاله العطاش، الذين أضناهم التعب، أن يسـتمروا فـي طريقهم دون أن يحطـوا رحالهم عند (آبار مدين). لم يكن هذا من الفن الحربي فحسـب، ولكنه كان من التربيـة العالية، وإن هذا المسير الذي لم يُسمَع بمثله في منظره الهائل ليكشف -زيادةً على ذلك- عن عملية تدريب بدني ونفسي في آن واحد، لإعداد الجيش الإسـلامي كيمـا يواجـه عما قريـب الأسـفارَ والعقبات فـي جميع أرجـاء العالم. ولقد احتمل بنفسـه كلَّ المتاعـب التي فرضها على جنده خلال هذه الحقبة المضنية، فهو مسـير هائل ورائع سـيوحي إلـى (دينيـه Dinet) بصفحة خالدة، ارتبطت فيهـا عبقرية مصور الصحراء المبدع بنفس المؤمن المضطرمة.

و(محمـد) باعتبـاره (نبيًا) يلتزم دائمًا في سـلوكه الشـخصي الحقيقـة المنزلة، فهو يقوم جزءًا كبيـرًا من الليل متنفلًا، ولكنه لا يُلزِم أتباعَه بذلك. وهو مع كونه (قائدًا)، لا يسـتأثر بأية ميزة دون صحابته، بل إن سلوكه الشخصي يعرفهم بحدود الجهد الإنساني، فلقد كانوا يؤسسـون في المدينة أول مسجد في الإسلام على تقوى من الله ورضوان، ولقد كان النبي كما كان صحابته يحملون الأحجار علـى أكتافهم، وكل منهم يحمل لبنة، ولكنه يلحظ مؤمنًا متواضعًا هو عمار بن ياسـر يحمل كل مرة لبنتين، فيخاطبه ليذكي حماسـته قائلًا: «للناس أجر ولك أجران»[٣٨].

(٣٨) الروض الأنف - الجزء الثاني (ص: ١٣).

وهكـذا كانـت سـائر المناسـبات تتيح لـه أن يشـجع صحابته ويعلمهم أيضًا . وهو لا يريد أن يدع شـيئًا يشـوب صفاء أصحابه أو يثني جهودهم الخالقة . إنه يقاوم الخطأ ، وخاصة عندما يأتي اعتباطًا بما يشـبه المعجزة لتأييد دعوته ، فكأنـه كان يهتم بأن يبعد عقول أصحابـه عـن (المعجزة الدارجة) التي تخاطـب الجوارح . ففي يوم دفـن ولده الوحيد (إبراهيم) الذي رآه يكبر ، حدث كسـوف كلي ، وفسر الناس الظلمات المفاجئة بأنها آية على مشاركة الطبيعة للنبي فـي حزنه ، ولكنه صحح في حزم خطأ صحابته قائلًا : « إن الشـمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .[٣٩]

هـذا التفصيل التاريخي الذي ترويه السـيرة ببسـاطة ، يثبت لنا إخـلاص (محمد) المطلق ، ويرينا اقتناعه الشـخصي لم يكن قائمًا على شـبه معجزة . وعلى كل حال ، ففي ضوء وثيقة نفسية كهذه لا يمكن أن نعد هذا الاقتناع نتيجة اسـتعداد عقلي غير سليم ، واتجاه منحرف لتفسـير بعض الأحـداث العارضة داخل الذات ، أو الخارجة عنها بأنها آية علوية ، إن محمدًا ذو فكر موضوعي ، لا يميل إلى تأييد دعوته بغير معجزته الوحيدة : (القرآن) . إن الملحمة المحمدية قد بلغت الآن أوجها ، ووصلت دعوةُ النبي إلى نهايتها ، وإنه ليستشعر ذلك . وهو يودّع صاحبه معاذ بن جبل ويملي عليه وصاياه الأخيرة ، وهو ذاهب إلى اليمن لينشـر دعوة الإسـلام قال : « لـو حدث لي أن أراك يومًا فسـأوجز لك ما عندي مـن الوصايا ، ولكن هذه هي المرة الأخيرة التي أحادثك فيها ، ولن نجتمع إلا يوم الحشر » .[٤٠]

ولقـد كان لدى أبي بكر وعمر الشـعورُ نفسـه نحو النبي ، فلقد

---

(٣٩) رواه البخاري.

(٤٠) ليس لهذا الخبر أثر في كتب الحديث (ف).

كانـا يعتقـدان أن أجل الوحي قـد دنا ، وأن إشـارة إلـى نهاية النبي القريبة قد وردت في قوله تعالى :

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

(النصر : ١ – ٣)

فمـن كل وجـه ، يبدو النبـي مهتمًا بدنو أجله ، وأنـه يأخذ أهبته الأخيرة ، فهو يريد أن يملي وصاياه على الأمة ، واختار لذلك مناسبة عظيمـة حافلة ، فأعلـن عن رغبته في أداء فريضـة الحج ذلك العام ، وغـادر المدينةَ ومعه آلافُ الحجاج ، وانضم إليهم الحجاج الواردون مـن أنحـاء الجزيرة إلى مكة ، وهناك أدى النبي شـعائر الحج كلها ، كأنه يريد تسـجيلها إلى الأبد في ذاكرة معاصريه لتنتقل من بعدهم إلـى أعقابهـم ، ثم إنه صعـد عرفات على ظهر ناقتـه ، وألقى خطبته الأخيـرة ، خطبة الوداع ، واختير صحابـي جهوري الصوت ليكررها للناس جملة جملة . وفي غروب الشمس ، بينما كان شبحه المحلق علـى قمة عرفات ، يبدو مرتحلًا عن الدنيا ، وكأنه نهار يتلاشـى في الأفـق ، كانت كلمات خطبته تصـل الجموع كأنما تخلص إليها من صوت علوي ، وكانت الجموع المتأثرة الصامتة تُنصت إليه خاشعة متصدعـة ، وأخيرًا صاح النبي : «ألا هل قد بلغت ؟» فأجابته الجموع الحاشـدة ، التـي بلغت قمـة الانفعال ، فـي صوت واحـد . . «اللهم نعـم» .[٤١] وفي تلك اللحظة هبط الوحي ، كأنما ليضع الخاتم على

(٤١) هـذه رواية البخاري، وفي المقريزي: «قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت» وهي تقرب مما جاء بالأصل. (المترجم)

هـذه الدعوة، فبركت الناقة -كمـا رُوي- على ركبتيها، وأرغت من الألم، وكانت خاتمة الوحي كما ورد في الخبر قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣)

وسـيطلق على هذا الموسـم في التاريخ (حجة الوداع). والواقع أن أقوال الرسـول ﷺ وأفعاله منذ الآن، حتى اليوم الأخير لن تكون إلا وداعًـا لأهله ولأصحابه ولأمته، ولهـذا العالم الذي خط له بعمق مصائره. فضلًا عن ذلك، فإن هذا اليوم الأخير قريب جدًا، إذ حينما عـاد إلى المدينة وافاه مـرض الموت، الذي أنهـى ملحمته العجيبة وختم دعوته المبلغة.

وفـي الصـلاة الأخيـرة التـي أقامها بنفسـه في المسـجد، أعلن للحاضريـن رغبته فـي أن يقضي ما عليه من ديون قائلًا: «أيها الناس مـن كان عنده شـيء فليـؤده ولا يقل فضوح الدنيـا، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة... وإن عبدًا خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده».[٤٢]

لقد ذاب الصحابة الذين أدركوا هذه الإشـارة في دموعهم، وبعد شـهوده يوميـن أو ثلاثة صـلاة الجماعـة، لزم حجرة زوجه عائشـة حتى النهاية. عندما حل الأجل، كان رأسُـه مسـتندًا إلى ذراع زوجه التي سـمعته وهو يتمتم بتلك الكلمات الأخيرة: «اللهم في الرفيق الأعلى».[٤٣]

---

(٤٢) كذا في رواية ابن الأثير ج٢ (ص: ١١٦) المطبعة المنيرية ١٣٤٩هـ.

(٤٣) رواه البخاري.

كان هذا هو الكلام الأخير الذي ختم بالنسبة للتاريخ حقيقة هذه الـذات التي حاولنا تخطيط صورتها النفسـية، لكـي نجلو الظاهرة القرآنية. ولقد حاولنـا حين جلونا معالم هذا الوجه المثالي أن نبرز السـمات الخاصـة بمحمـد (الرجل) لكـي نتلقى منه -فـي بحثنا للقضية- شـهادته على محمد (النبي). ولا شـك أن هذه الشـهادة تكـون عنصـرًا ثمينًا في دراسـتنا، فهي على كل حال شـهادة رجلٍ شهد له زمانه على لسان امرأة، بهذا الحكم الأخير[٤٤]: «أي رسول الله!! أنـت حـيّ في قبـرك، أملنا الغالب، لقد عشـت بيننـا طاهرًا مخلصًا منصفًا، وكنتَ لكل إنسان هاديًا حكيمًا منيرًا».[٤٥]

(٤٤) ورد هذا في رثاء عمته صفية. (المؤلف)

(٤٥) لعل هذه ترجمة لبعض ما أنشدتْه عمته السيدة صفية في رثائه من مثل قولها:

فإما تُمسِ في جدثٍ مقيمًا ... فقد ما عشتَ ذا كرم وطيـب

وكنتَ موفقًا في كـلِ أمـر ... وفيما نابَ منْ حدثِ الخطوب

وقولها:

فلقدْ كان بالعباد رءوفًا ... لهم رحمةً وخير رَشيد

فهرس المحتويات

***